الندوة

العدد الثالث – آذار (مارس) 2023

نشـــرة إلكترونية فصلية تصدر عن الندوة الثقافية المركزية

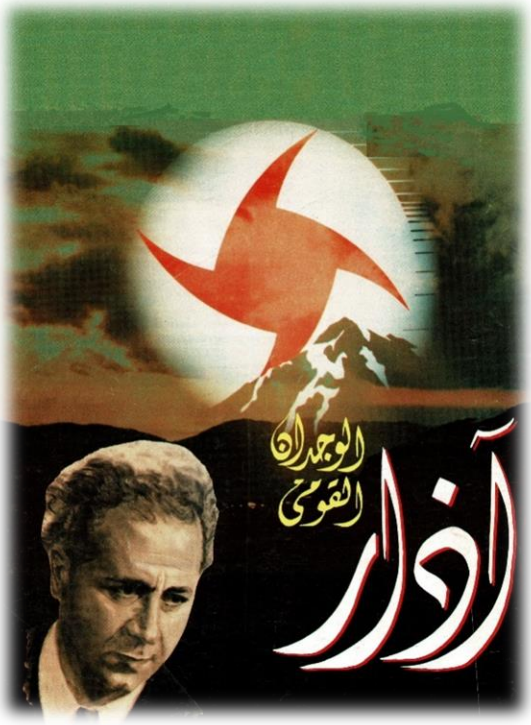

الأوّل من آذار...

في هذا العدد

- ✓ رسالة رئاسة الحزب
- ✓ رسالة عميدة الثقافة والفنون الجميلة
- ✓ رسالة عميد الإذاعة والإعلام
- ✓ رسالة رئاسة الندوة الثقافية المركزية
- ✓ نحو فهم أعمق لقضية التعاقد (وكيل عميد الثقافة)
- ✓ الزعيم والحدود الشرقية (أ. وليد زيتوني)
- ✓ التعاقد: من التأسيس إلى المستقبل (سليم مجاعص)
- ✓ قَسَمُ الزعامة وقَسَمُ العضوية (شحادي الغاوي)
- ✓ العقد والتعاقد مع سعاده (أ. إيلي عون)
- ✓ علاقة قسم العضوية بقَسَم الزعامة (أ. أسامة سمعان)
- ✓ "تعاقد" سعاده و"نازيّة" الفوهرر (عادل بشارة)
- ✓ قراءة في مفهوم التعاقد عند سعاده (أ. زهير فياض)
- ✓ التعاقد مع سعاده بين الرسالة والانتماء (أ. أحمد أصفهاني)
- ✓ الزعامة في الحزب (أ. جهاد نصري العقل)

الأول من آذار 1935

"أنا أنطون سَعَادَه، أُقْسِمُ بِشَرَفِي وحَقِيقَتِي ومُعْتَقَدِي، على أنّي أقِفُ نَفْسِي عَلى أُمّتِي السُّورِيَّةِ ووَطَنِي سُورِيَة، عامِلًا لِحَياتِهَا ورُقِيِّهَا، وَعَلى أنْ أكُونَ أَمِينًا لِلْمَبَادِئِ الَّتِي وَضَعْتُهَا، وأَصْبَحَتْ تُكَوِّنُ قَضِيَّةَ الحِزْبِ السُّورِيِّ القَوْمِيّ، ولِغَايَةِ الحِزْبِ وأَهْدَافِه، وأَن أَتَوَلّى زَعَامَةَ الحِزْبِ السُّورِيِّ القَوْمِيّ، وأن أَسْتَعْمِلَ سُلْطَةَ الزَّعَامَةِ وقُوَّتَها وصَلَاحِيَّاتِها في سَبِيلِ فَلَاحِ الحِزْبِ وتَحْقِيقِ قَضِيَّتِه، وأَنْ لا أَسْتَعْمِلَ سُلْطَةَ الزَّعَامَةِ إلاّ مِنْ أَجْلِ القَضِيَّةِ القَوْمِيَّةِ ومَصْلَحَةِ الأُمَّة، عَلى كُلِّ هذا أُقْسِمُ أنا أَنْطون سَعَاده".

عودة إلى الرئيسية

رسالة حضرة رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي

الأمين الدكتور ربيع بنات إلى نشرة "الندوة" في مناسبة الأول من آذار

الثقافة والعودة إلى ساح الجهاد

يسعد رئاسة الحزب أن تقدم مجموعة أعمال الندوة الثقافية للعام الحزبي (90- 91)، بهذه الكلمة الوجدانية التي تعبّر عن أهمية إعادة العمل الثقافي إلى جسم الحزب، كخطوّة متقدمة في استراتيجية العودة إلى ساح الجهاد والصراع، التي دعانا إليها سعاده يوم عودته إلى الوطن في آذار 1947.

العودة إلى ساح الجهاد، افتتحها سعاده، داخليا بتطهير الحزب من الانحرافات والولاءات الفردية المدمّرة، وانصرف إلى بناء المؤسسات الحزبية، مركزا على تثقيف المسؤولين الإداريين بالمبادئ الدستورية والعقدية، وأخرج العمل القومي من دوائر الجهل والفساد والميعان إلى رحاب التثقيف والعلم والمعرفة عبر إطلاق "الندوة الثقافية" التي كانت المدرسة العقائدية الأولى التي خرّجت جيلا من المثقفين العقائديين الذين نشروا الرسالة القومية الاجتماعية، في الجامعات والمدارس والمؤسسات الإعلامية، فتولّد من جراء ذلك تيار فكري ملتزم بالعقيدة القومية الاجتماعية، تمظهر في بروز مجموعة كبيرة من المدرسين والمؤلفين والصحفيين والمهتمين بالفنون الجميلة على أنواعها، واتبع سعاده كل ذلك بجولاته التفقدية للمناطق الحزبية في الكيانين اللبناني والشامي، وحضوره الشخصي لمخيمات التدريب والتثقيف، وإعداد الفرق العسكرية، مستنهضًا القوميين الاجتماعيين والمواطنين للعمل القومي الجدّي لإنقاذ شرف الأمة وكرامتها، وفلسطين كانت العنوان الكبير في مشروعه الجهادي: "إن جهادنا يستمر، ويجب أن تذكروا دائما أن فلسطين السورية، أن هذ الجناح الجنوبي مهدّد تهديدا خطيرًا جدا. إن إرادة القوميين الاجتماعيين هي إنقاذ فلسطين من المطامع اليهودية ومشتركاتها.."[1].

وعندما رأى سعاده أنّ الأمة في خطر، وأنّ الحزب في خطر، اختار طريق الثورة التموزية، طريق الشهادة لإنقاذ شرف الأمة وكرامتها، وحماية الحزب واستمراريته. فكان القدوة لجحافل من الشهداء والاستشهاديين والأبطال الذين زرعوا وقفات العز على كلّ ذرّة تراب من أرض سورية.

إنّ ثبات القوميين الاجتماعيين في ساحات الجهاد، بعد استشهاد سعاده، أكّد أنهم الحركة النظامية الوحيدة المصارعة لإنقاذ شرف الأمة وكرامتها وصيانة وحدتها الاقتصادية – السياسية - الاجتماعية، فكانوا بحق الأمة السورية مصغرة، وكانوا القوّة الفعلية، ثابتون في مواقعهم النضالية، رافضون بالمطلق الحتمية التاريخية، وما كتب عليهم، فثاروا على الأمر الواقع الانهزامي الاستسلامي، وها هي قوتهم الذاتية قد غيّرت وجه التاريخ. وبدأت فعلا تاريخ الأمة الحرّة، التي لا ترضى أبدا قبر التاريخ محلا لها، لأنّها هي الأمة الهادية المعلمة للأمم.

العودة إلى ساح الجهاد، هي العودة إلى المثالية الأولى. العودة إلى المثالية العقدية والنظامية. العودة إلى البناء الداخلي وتأسيس القيم النفسية، الأخلاقية والمناقبية، وإعداد الطرق العملية لانتصار القضية القومية الاجتماعية المقدسة. العودة إلى معارك الانتصار السياسي الفاصل – معارك صراع العقائد والغايات الكبرى – معارك البطولة المثالية المؤيدة بصحة العقيدة. العودة إلى تقوية اليمين العقدي وروحية الصراع. العودة إلى الصراع تقتضي العودة إلى المثالية الأولى، مثالية الإيمان بالقضية وبالقيادة الحكيمة. والعودة إلى تراث حزبنا العظيم الزاخر بوقفات العز وجحافل الشهداء والاستشهاديين والقادة والأبطال.

إن تاريخ حزبكم أيها السوريون القوميون الاجتماعيون هو تاريخ عزّ وبطولات وفخر ومجد، فصونوا تاريخكم، وتابعوا مسيرتكم في ساح الجهاد القومي الاجتماعي، وسجلوا في كلّ موقع من مواقع نضالكم التزامكم المطلق بعقيدتكم، وما تختزنه من القيم والأخلاق والمثل والتضحيات، فأنتم اليوم، في هذا الزمن العصيب، الذي تمر فيه أمتنا في قلب الزوبعة، فكونوا أنتم القلم والسيف والدرع تصونون حق الأمة بقوتكم وعزيمتكم وثباتكم في ساحات الجهاد القومي.

[1] سعاده: الأعمال الكاملة، م 7، ص 207.

عودة إلى الرئيسية

العودة الى ساح الجهاد، هي العودة الفعلية إلى حياة الجندية القومية المعطاء، وهذه لن تتمّ إلا بعد "تطهير الحزب من نفسية المساومات والمضاربات والقضاء على الانغماس السياسي الخصوصي قضاء مبرمًا، فلا يبقى في الحزب غير: جنود عقيدة ونظام، وإيمان بالنصر. جنود في كل عمل واختصاص. جنود في الإدارة. جنود في الإذاعة وجنود في الثقافة وجنود في السياسة[2]".

لقد ظنّ بعض المغرورين، كما يقول سعاده: "أنّ العمل العقدي الأساسي كالبحث في الأمة وقوميتها وحقيقتها وأهدافها، أمر يمكن الاستغناء عنه والاستعاضة عنه بالمساومات السياسية المطوحة بالعقيدة القومية الاجتماعية، وغاية هذه الحركة العظيمة، فكادت القضية المقدسة تسقط من أساسها، وابتدأ الميعان والفوضى يهددان الحركة بالتفكك العام، فلما كان من وراء غيبتي عودة الحركة إلى العقيدة والغاية قضي على الميعان والفوضى، وعادت الحيوية إلى الحركة، وعاودتها البطولة والمثالية الأولى، فتعلمون الآن بالاختبار في أي مهوى سحيق تسقط الحركات والأمم التي تفقد عقائدها ومقاصدها"[3].

من هذا المنطلق تعهّد سعاده بنفسه أعمال "الندوة الثقافية"، منذ تأسيسها في العام 1937، وأعاد تفعيلها، في العام 1948، من خلال شرحه الموسع للتعاليم السورية القومية الاجتماعية وغاية الحزب، في المحاضرات العشر، مشدّدا على ضرورة تحقيق أهداف الندوة في "نقل الفكر من السطحيات ومسائل الإدراك العادي إلى الأساسيات وقضايا العقل العلمي والفلسفي".

أهنئكم على مثابرتكم في متابعة أعمال "الندوة الثقافية"، التي ستشكّل محاضراتها ومناقشاتها ما رما إليه حضرة الزعيم، بأنّ رسالته بحاجة إلى دراسات متعدّدة: "إنّ فلسفة سعاده تتكشّف عن قضايا ومفاهيم جديدة سامية، وهي تحتاج إلى دراسات عديدة، إنّها تفتح إمكانيات إنتاج فكري جديد، يخطو بالمجتمع خطوة خطيرة نحو ذروة القوّة وغلبة الموت "[4].

[2] سعاده: مقالة "المثالية الأولى".
[3] سعاده: محاضرة حضرة الزعيم في مؤتمر المدرسين عام 1948.
[4] سعاده: مقالة "نظرة سعاده إلى الإنسان".

تعاقد المحبة

بقلم عميدة الثقافة والفنون الجميلة
الدكتــورة فاتــن المر

يعرف القوميون هذا الأمر، يعيشونه منذ نشأتهم، منذ الحلقات الإذاعية الأولى، وقراءاتهم الأولى، منذ كانوا أشبالًا يسرحون في المخيمات الصيفية، "يتشيطنون" أو يستمعون إلى الدروس التي يلقيها عليهم المذيعون، منذ أن رفعوا يدهم زاوية قائمة واعترتهم رهبة المسؤولية التي حملوها على كواهلهم حتى نهاية العمر، منذ انخرطوا في العمل ضمن وحداتهم الحزبية، وإن انقطعوا لسبب أو لآخر عنها لمدة من الزمن، منذ أن حملوا البندقية للدفاع عن أرضهم وذهب بعضهم إلى درجة تفجير جسده ليدحر أعداءها. يدركون جيدًا أبعاد تعلقهم بزعيم حزبهم، وتعليق صوره في منازلهم وتأدية التحية أمامها. يعرفون أن تعلقهم به لا يشبه بشيء تعلق الطائفيين بزعيم طائفتهم، أو المتزلفين بابن منطقتهم الذي يعدهم بالخدمات، بل أن حبه هو جزء من وطنيتهم ورغبتهم في تحرير وطنهم وازدهاره على كافة المستويات.

حبهم لشخصه يعود سببه إلى القدوة التي قدمها في حياته وفي خيار تأدية قسم الزعامة الذي يعلن فيه أنه "يقف نفسه" لمصلحة أمته، حيث انتفت الفردية والمصلحة الخاصة. وقد توكل سعاده شؤون أمته المنكوبة بشتى الأمراض الاجتماعية، كما بالاحتلالات الخارجية، إذ اختار لقب الزعيم الذي يحمل لغويًا معنى الضامن والكفيل، أي أنه يكفل العمل على تحقيق الغاية التي وضع الحزب من أجلها.

حب القوميين لزعيمهم من حبهم لبلادهم، في قسمه قدوة للواجب الذي نذروا أنفسهم لتأديته، في صوره انعكاس لاعتزازهم به كمثل اعتزازه بهم، وفي تعاليمه مرآة لصدقهم وتفانيهم في سبيل إنقاذ أمتهم ورفعتها.

الأدب في تجسيد قدوة "فتى آذار"

محمّد يوسف حمّود أنموذجًا

بقلم عميد الإذاعة والإعلام
الدكتـور لؤي زيتوني

لا ريب أنّ الإشعاع الذي أطلقه مطلع آذار قد اتّسع ليشمل السّاحة الثّقافيّة ووجهها الفاعل في بلادنا، وقد يكون أحدث التّغيير العمليّ لوجه التّاريخ في هذا المجال، فكان بحقٍّ الفجر الذي هزم الظّلام ورسم لنا طريق النّهار. ولعلّ ما يمكن تأكيده هنا، أنّ هذا الإشعاع قد أسّس لتطوّر الفنون في بلادنا وإدخالها في مسار الحداثة، إنطلاقًا من الموسيقى والغناء، مرورًا بالمسرح والفن التّشكيليّ، وصولًا إلى الأدب عمومًا، والشّعر خصوصًا... وعلى المستوى الأخير، نجد الحضور القيميّ والفنّيّ لسعادة في قافلةٍ من الشّعراء الذين أطلقوا تيّار الحداثة مسارًا سيبقى متواصلًا ومتصاعدًا. وهنا يمكن أن ننظر إلى محمّد يوسف حمّود بوصفه واحدًا من أفراد هذه القافلة الذين مثّلوا القيم السّعاديّة أو الآذاريّة.

قليلًا ما نجد شخصيةً جعلت التّمرّد سلوكًا أصيلًا فيها، أو عنصرًا مكوّنًا لها، في عصرٍ يتّسم بالاستسلام التّامّ لسلطةٍ عظمى متعدّدة الأوجه، تبدأ بالهيمنة الاستعماريّة المباشرة، عسكريًّا وسياسيًّا، وتمرّ بالهيمنة الاقتصاديّة التي تؤمّن تحكّمًا بالشّعوب إلى مدًى أطول، انتهاءً بالهيمنة الثقافيّة التي تمحو الهويّات وتقزّم القضايا. ولعل أوجه هذه السلطة لا تنتهي عند هذا الحد، إذ تتجلّى في نماذج مصغّرة لها مستمِدّةٍ وجودها واستمراريّتها منها، وقد تصغر مساحة نفوذها وتتنوع، بين دكتاتور هنا وحليف هناك، ومتمول هنا ومأجور هناك، وصولًا حتّى إلى حكمٍ "وطنيّ" يؤمَن جانبه ليسلِم شعبه إلى التّخلّي عن القضية شيئًا فشيئًا، وقمعه بشكلٍ بعيدٍ عن الإعلام.

وفي ظلّ وضع كهذا، تصعب رؤية شخصيّةٍ قادرةٍ على المواجهة بثقة عالية وإيمان عميق، دون خوف من تعذيب أو قتل أو تجويع. لأنّ ذلك يتطلب نفسًا كبيرة، وعقيدة خالدة راسخة وموهبة فذة. وهنا نهتدي إلى شخصية الشّاعر محمد يوسف حمود، التي تتصف بالجرأة على كشف الحقيقة، وانتقاد موضع الخلل ومحاربته، وهذا كلّه بالاستناد إلى فكر ناهض وقوي يضيء الطريق لخلاص المجتمع.

وتظهر معالم هذه الشخصيّة في نظرة حمود إلى وطنه، الأمر الذي يتضح من خلال قوله: "إنه الوطن الذي ميزته الطبيعة عما سواه من الأوطان، منذ أن برزت اليابسة من تحت الغمر في بدء التكوين، وشاءه التاريخ بيئة لمجتمع متحد مستقل عما سواه من المجتمعات، ومهدًا لميلاد العقل ونشوء الحضارات، وصوتًا لإيقاظ العالم من السبات وإنقاذه من ظلمات الجهالة"[1].

ومن الطبيعي أنّ من يدرك حقيقة وطنه ودوره بوضوح وعمق، بعيدًا عن الشعارات الزائفة والادعاءات الفارغة، سيكون انتماؤه إليه أقوى وأصدق، ما يدفعه إلى رفع صوته ليحذّر من الأمراض المعشعشة فيه، والتي تتمثّل في الطائفية والعنصرية والجهل والأنانية. وهذا ما نفهمه حيث يعلن: "وكان وطنكم يا صغاري إذ ذاك في غمرة من الظلمات الشاملة، تتوزّع أمّتكم رياح صرصر هوجاء عاتية تهب من معاهد العلم الجاهلة المتجاهلة.. فقد كانت للأجانب المستعمرين معاهد، وللإقطاعيين المتحكّمين معاهد، وللطائفيين المتجرين بالدين معاهد، وللعنصريين الاعتباطيين معاهد، وللأنانيين الفرديين معاهد،

[1] – محمد يوسف حمود: ذلك الليل الطويل. بيروت، دار الكشّاف، الطّبعة الأولى، 1953، ص73.

وللدجالين أنصاف الأميين معاهد... وكانت كل بؤرة من هذه الأجواء الوخمة تنتشر في شعبكم جراثيمها وتبث في بلادكم سمومها"[2].

لكن عند هذا الحد، تبقى ثورته هادئة لم يعلن فيها تمرّدًا كاملًا وهدفًا واضحًا. وهنا يعلن حمّود عن المثال، أو بالأحرى القدوة التي يدرك معها الطريق الحقيقي الموصل إلى حرية الأمة ورقيّها. فقد وجد هذا العظيمَ أنطون سعادة الذي "في عقله التاريخ منذ الأزل، وفي عينيه امتداد الحياة إلى الأبد.. على جبهته وضاءة العلم، وبين شفتيه مضاء العمل، وفي صدره جناح خافق بالمحبّة والإيمان"[3].

ومن خلال هذه الصفات، استطاع الزّعيم التّأثير في حمود، فاندفع للمشي على خطاه، رفع سيف المجابهة والانتفاض، وبدأ بالهجوم على رموز النّظام القائم وعلى ما فيه من أمراض وما يخبئ من ظلم.

لذلك يبدأ بالعمل على مخاطبة الشعب ليثور على أولئك الذين يحكمون ويقمعونه، فصرح: "لقد آن أن تفتحوا لهؤلاء (العتاق) أبواب متحف التاريخ وتضعوهم هناك بين الآثار والمومياء الخالدة بصالحها وطالحها وسليمها ومشوّهها، عبرةً للمعتبرين ومرجعًا للمنقبين... وأطلالًا يوقف عليها الأبناء والأحفاد مطيّهم غدًا ليقولوا: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"[4].

ويبرز في هذه الفقرة قوله "العتاق"، ويقصد بها المتحكمون بحياة الناس نتيجة مظاهر مستمرة منذ عهود الانحطاط، فمن غير الخفيّ على الناس أن الإقطاعية التي باد زمانها نهائيًا في العالم، لكن جهابذتها في بلادنا ما يزالون قائمين، وقل الأمر نفسه في الطائفية وغيرها... وما يترتب عن هذا من مفاهيم عدّى عليها الزمن.

وبناءً على ما سبق، أطلق حكمه حول هؤلاء دون تردّدٍ أو وجل، فرأى أنهم سائرون إلى الزوال: "أما الجشعون العتاة القساة، ففي نيران خطبك سيحترقون"[5].

فبعد أن كان يدعو الناس إلى رمي أصحاب النّظام في المتاحف كشاهد على نهايتهم، ينتقل إلى اليقين من هذه النهاية فهي حتمية لأن صبر الأمة لن يطول كثيرًا، وسينفذ حكمها فيهم. إنّها أمة لا تفتقر إلى مقوّمات الحياة، ولكنّها تفتقر إلى نهضة تعيد إليها أمجادها، وترفعها من حال الانهزام والتّخلّف نحو مصاف الأمم العظمى؛ وعلى عاتق أديبنا دور إشاعة الوعي بهذه النهضة وفعلها الانبعاثيّ، وتوضيح دور أبناء الأمة فيها. ولهذا يعود لتوجيه الحديث إليهم، لأنه يريد الانتصار لأجلهم لا عليهم، في استعادةٍ لبعض مقولات سعادة، قائلًا بثقة: "احملوا مصباحي... وسيروا على هديه... تتجنبوا المهاوي والصخور.. والأفاعي والأشواك!"[6].

وفي هذا السّياق، يرفض محمد يوسف حمود الاستكانة أو الراحة مهما حاول البعض إقناعه بالتّراجع عن العمل الذي اختاره لنفسه. فهو يرد بالإيجاب على أسئلة صاحبه: "رويدك.. ألا تدري أنّ للحيطان آذانًا؟... وأنّ للشّيطان عيون؟.. وأن الغناء في الطاحون جنون؟.. وأنّ سلطان القانون: كن.. فيكون؟"[7].

ويتّضح لنا أنّه يدرك خطورة جرأته في قول الحقيقة، وما ينتج عن ذلك من اضطهاد وقمع. ولكنه مع ذلك يأبى السكوت، والاستسلام للخوف، لأنه متأكد من أن الذين يجابههم ليسوا بالقوة التي يظهرون بها. واستنادًا إلى ذلك يكمل الحوار مع صاحبه:

"قال: وكيف تكتب، ولا تخشى؟ وكيف تقول، ولا تهاب؟

قلت: لي قلم مسدّد.. وعندي حروف كالرصاص.

قال: وتطلقها على نحاس؟

قلت: سلامة عينيك.. لا أرى إلا التنك!

قال: ولمَ لا ترتاح من هذا العناء؟

قلت: لا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربّه!"[8].

ولا مجال للشّكّ، من خلال هذا الكلام، أنه حسم أمره ولن يتراجع عن الهدف الذي اتخذه وهو تحرير المجتمع من النظام الفاسد والمتخلف. وهذا ما وضعه نصب عينيه طيلة حياته، فلم يكلّ أو يملّ حتى آخر رمق منها، وأخذ يشدد:

"كلا ما سئمت تكاليف الحياة يا بني، فأنا لمّا أزل من أبنائها، أسير في مواكبها، فلا أسقط، وأحيا في خلودها، فلا أموت..."[9].

وهو بعد ذلك، لا يكتفي بهذه الحدود، لكونه يعاهد نفسه على تسليم الدور الملقى على عاتقه إلى جيل جديد يتميز بإقدامه على المبادرة لمواجهة الأزمات والمآسي ورفع المعاناة عن الأمة بأسرها، انطلاقًا من أن معركة الأحداث هي التي تحدد معركة المصير القومي، ما يعبّر عنه بالقول: " بعدئذٍ، تراني عدت إلى الصراع في جيل نحن أعددناه للصراع.."[10].

فمحمّد يوسف حمود يعلن خلوده، من خلال الفكرة التي ينقلها إلى الجيل الذي يليه، والذي يعقد عليه كل الأمل في استمرار جذوة النهضة وانتصارها، منتهجًا نهج سعادة في هذا المجال. وذلك لأنّه وُلد من رحم المعاناة والألم، وبالتّالي فإنّ انتصاره سيكون عظيمًا بقدرها، ولن يتجرّأ على هذا الانتصار الدّجّالون وبائعو الكلام، وانسجامًا مع ذلك يُطلق نشيده المشهور:

" الجرح ينطق يـا فمُ ... ودم الفدا يتـكلّمُ

اخرس فإنّك إن تكلّـ ... مَتِ الزّوابـع أبكـمُ

ماذا يقول الحرف في ... الشّفتَين إذا نطق الدّمُ"[11].

---

[2] – المرجع نفسه، ص21.

[3]– المرجع نفسه، ص 38 – 39.

[4] – المرجع نفسه، ص87.

[5] – المرجع نفسه، ص55.

[6] – المرجع نفسه، ص40.

[7] – المرجع نفسه، ص6.

[8] – المرجع نفسه، ص6.

[9] – المرجع نفسه. ص3.

[10] – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

[11] – محمد يوسف حمود: في زورق الحياة. بيروت، دار الكشّاف، الطّبعة الأولى، 1960، ص21.

وفي ذلك نرى أنّه يملك تمّوزيّةً من نوعٍ خاصّ، تتمثّل في الحضور الدّائم لصور القوّة والغضب والثّورة، حتّى في معرض الكلام عن التّضحية. غير أنّنا عند النّظر في نتاجات حمّود بشكل كلّيّ، نلاحظ أنّ كل ما تقدم يهيئ مجتمعًا لمواجهةٍ أهم، إذ أن تمرّده الواضح آنفًا يجعل هذا المجتمع متماسكًا مدركًا لمصالحه واعيًا للأخطار المحيقة به. وعليه فإنه يتحول إلى تمرّد أعمّ يحدّد العدوّ المتربّص بنا ويواجهه، ليس فردًا، بل جماعةً، دون اللّجوء إلى منهجٍ واحدٍ في هذا الصّراع، إلاّ أنّه يقوم بالتّركيز على الجانب الأخطر منها وهو الذي يقتضي موجبات الدفاع عن هويتنا وانتمائنا. من هنا يرفض تبني المفاهيم التي يحاول المستعمر بثّها فينا لنكون تابعين له، بوساطة مؤسّسات السّلام والتّثقيف المزعومة وشعاراتها. وهو ما نتوصل إليه من قوله:

"إذا كانت التربية والعلم والثقافة وتوابعها أدوات للبقاء على الخير والقضاء على الشر، كما أنكم تريدون، وادّعت دولكم أنها استعملتها وتدعو لاستعمالها، فحريٌّ بنا، نحن المشرقيّين، أن نمتشقها سيفًا وحديدًا ونارًا، في وجه إسرائيل الشريرة"[12].

وحمود يتابع في المقال نفسه، وضمن نفس السياق، ليوجه كلامه إلى مواطنيه:

"أيها المشرقيون الأحياء!

دعوا الأونسكو للأونسكيين وتعالوا بنا منذ الساعة نعلّم ونوجّه ونجدّ لتحرير فلسطين بل لتحرير المشرق وتحريرنا أجمعين من وطأة إسرائيل"[13].

فأي قرارات دولية وشعارات تصطبغ باللون الإنساني، لن تجعلنا نتردد في حربنا ضد إسرائيل. إذ صحيح أن العلم حسب الأونسكو وسيلة لتقدم الشعوب ورقيها والمحافظة على تراثها، لكنّ هذه الشعوب لا يمكن أن تتقدم وتحافظ على تراثها دون أن تستخدم هذا العلم أو هذه الثقافة في سبيل القضاء على أي خطر، ودرء أي عدوان، وبعد ذلك يبدأ تحقيق ما تدعو إليه مثل هذه المؤسسات وليس قبله.

ومن هذا المنطلق، يتطرّق حمود إلى شخصية يسوع المسيح بوصفه أحد أعمدة هذا الصراع، وأكثر رمز من بلادنا قد تعرض للتشويه على يد أعدائنا، إن من خلال الإصرار الوحشي على يهوديته، أو على إفراغه من قيمه الحقيقية التي كرّس رسالته لأجلها. لذلك كان اللّجوء إلى هذا الرّمز واجبًا على الكاتب ليبين حقيقته، وحقيقة دوره الثّقافيّ–الحضاريّ. ولعلّنا نبتعد أقصى ما يكون عن الادّعاء والمبالغة إذا قلنا أنّ هذا الدور الذي شكّل خطرًا أساسيًّا على هيمنة الطّاغوت اليهوديّ ووجوده، هو السّبب في استهدافه. لذا قام أديبنا معلنًا:

"لا، لا تقولوا إني أشتط وأبتدع، فمسيحنا كان رسول المبادئ الإصلاحية ومعلم الدروس الاجتماعية وزعيم النهضة المشرقة وقائد الحملة البطولية في مكافحة الفساد والفوضى والشرور والآثام، أوبئة بني إسرائيل الفاسدين الشريرين الآثمين التي كادت تمتد في أنحاء المشرق وتصيب المشارقة أجمعين... فانتصر هذا البطل على تلك الأوبئة انتصار اللاهوت في السماء والناسوت على الأرض، بعد أن غضب على بني إسرائيل وشتتهم ولعنهم، فتشردوا عبيدًا يساقون وتيها يتساقطون"[14].

إذًا فأهمّيّة المسيح أنه حمل سوطه وأعلن حربه ضد اليهود الذين سيطروا على الهيكل وجعلوه خدمة لمصالحهم. نعم، إنه قد حمل السّوط ضدهم ولم يترك خديه عرضةً لصفعات من عادوه. كما أنه في سن مبكرة من حياته، أفحم العلماء اليهود وكشف زيفهم. وهو إضافةً إلى هذا وذاك، "يبذل نفسه عن أحبائه" ويضحي بذاته في خضمّ هذا الصّراع، بعد مؤامرتهم عليه.

وهذا ما يدفعنا إلى الإيمان بأنّ الصراع بيننا وبين الخطة اليهودية المنظمة، صراع قديم ومستمر، واجب علينا وعيه والانخراط فيه، والتّضحية من أجل الانتصار فيه، شئنا ذلك أم أبينا. وهذا لأنّ شرّ بني إسرائيل محدق بنا على الدوام. وهذا ما عمل عليه محمد يوسف حمود، متمرّدا على الفكر الذي يدعو إلى السلام–الاستسلام، فحثّ على النّضال الميدانيّ ضدّ الاحتلال الإسرائيلي، وهو الأمر الذي بلغ ذروته عنده، حين علت حدّة المقاومة في ثمانينات القرن الماضي، انطلاقًا من بيروت "الشاعر"، فلم يتوانَ عن وضع نشيد المقاومة الذي توّج مسيرته التّمرّديّة، عندما يقول:

"للصعاب... يا شباب...
من غيرنا يلتاع من؟ إذا بكت عين الوطن
مقاومة.. مقاومة.. بالنار لا مسالمة".

بناءً عليه، يمكن القول إنّ القدوة التي قدّمها أنطون سعادة بوصفه مفكّرًا نهضويًّا وقائدًا استثنائيًّا وحاملًا لقيم الحقّ والخير والجمال، قد برزت بشكلٍ جلّيّ في أدب محمّد يوسف حمّود، الشّاعر البيروتيّ الذي حرص على تمثّل القيم التي أطلقها سعادة. فهلّ لنا أن نُوصل هذا التّمثّل قيميًا وفنيًّا إلى الأجيال القادمة، مطلقين مشروعنا الثّقافيّ النّهضويّ المستند إلى فكر سعادة ورؤيته إلى الحياة والكون والفنّ، وإلى الحقّ والخير والجمال؟

[12] – محمد يوسف حمود: ذلك الليل الطويل. ص 80.

[13] – المرجع نفسه، ص81.

[14] – المرجع نفسه، ص144.

التعاقد في ميزان النهضة

بقلم رئيس الندوة الثقافية المركزية
الأمين الدكتور إدمون ملحم

يقول الفيلسوف جان جاك روسو "إن العبقرية الحقيقية هي التي تُبْدِعُ وتصنع كلَّ شيء من العدم."[1] وإذا شئنا البحث عن نموذج فعلي للعبقرية الحقيقية فسنجده حتمًا في شخصية رجل عظيم تمتع بذكاء عالٍ وعقل رؤيويّ وروح وثّابة.. رجل شقَّ الطريق لحياة أمته ونبّه إلى حقيقتها ومقصدها الأسمى وعيّنَ مصلحتها وعمل على بعثِ نهضتها الشاملة ووقف نفسه لها باذلًا دمه في سبيل حريتها وانتصار نهضتها في وقفة عز لا مثيل لها في التاريخ. هذا الرجل الذي امتلأت نفسه العظيمة نورًا ومعرفة وحكمة، تجلّت العبقرية الحقيقية في عقله الجبّار وإرادته القوية وهمته العالية وفي ما قدّمه خلال مسيرة حياته الممتلئة جهادًا وعطاءً زاخرًا وآلامًا وتضحيات كبيرة ووقفات عز وبطولات. وتجلّت في وعيه المبكر واهتماماته العالية وفي معرفته الواسعة وأطروحاته المميزة ومؤلفاته الخالدة ومبادئه المناقبية وأفكاره الفلسفية وإنجازاته التاريخية وأهمها بعث نهضة قومية اجتماعية "هي من أروع النهضات في العالم كله"[2] وإيجاد حركة الشعب القومية التي أطلقت "قوة روحية عظيمة لا حد لممكناتها"[3] و"صنعت "تاريخًا جديدًا حافلًا بحوادث الإخلاص والبطولة والتضحية."[4]

هذا الرجل العبقري، الذي خاطب العقل في كتاباته وأقواله، هو مُعلّم الأمة بالقدوة وفيلسوفها المبدع الذي أظهر شخصيتها وأعلن هويتها السورية الأصلية وعيّن حدودها الجغرافية وصاغ نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن.. نظرة كشفت عن كنوزنا وأصالتنا وتاريخنا الحضاري ورسمت مثلنا وقيمنا وَهَدَتْ أدباءنا وشعراءنا وأرشدت أجيالنا إلى شاطئ الأمان.

هذا الرجل الاستثنائي، الذي انشق على فساد المجموع، هو المؤسس لقضية حياة الأمة ونهوضها وتقدمها. وهو القائد الأعلى لجنود القضية ولجيشها.

هو المشرّع الحكيم واضع النظام المتين والقوانين الدستورية الصالحة لدولة الأمة الناهضة ومؤسساتها وسلطاتها والمخطِّط لانتصار القضية النبيلة ولبلوغ قمم العز والشرف والكرامة.

هو الزعيم الذي لم يفرض نفسه على الشعب بنفوذ سلطة دينية، ولا بإرادة خارجية، ولا بحكم الوراثة لزعامة عائلية، أو عشائرية، أو إقطاعية، بل شقَّ طريقه خارجًا من صفوف الشعب وآلامه.. فكان بفكره وأخلاقه ومقاصده النبيلة المعبّرَ الأوفى والأكثر صفاءً عن الحقيقة الاجتماعية للأمة ومُثُلها وتطلعاتها وعن الآمال الكبيرة العالقة بها أنفس ملايين البشر وبذلك تعتبر زعامته زعامة أصلية، متميزة، ومنبثقة من صميم عظمة الأمة السورية ومن نتاج عبقريتها ونفسيتها الخيّرة.

والزعيم، كما هو واضح في صميم قسمه المثبّت في الدستور، وَقَفَ نفسه على حياة الأمة ورُقيها وأقسمَ يمين الحق غير شاعرٍ أنه يقدّم منّة للأمة، بل مؤمنًا بأنه يُعطي الأمة ما يخصها من خير وطموح وعظمة لأن كل ما فينا هو من الأمة وكل ما فينا هو للأمة. أقسم أن يستعمل سلطة الزعامة "في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيته"، لا في سبيل بناء زعامة فردية تقوم على جهاد القوميين الاجتماعيين وتضحياتهم. لقد قيَّدَ نفسه في مؤسسة دستورية هو المرجع الأعلى فيها وأقسم ألّا يستعمل سلطته "إلا من أجل القضية القومية الاجتماعية ومصلحة الأمة." هذا القسَمُ هو تجسيد لقوله إنَّ "اليمين توضع للأمور العظيمة

[1] جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ترجمة عاجل زعيتر، هنداوي، 2013، ص 72.
[2] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد السادس 1942-1943، "الوطنية والأريحية في المغترب"، 1943/07/01.
[3] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد السابع 1944 – 1947، "شق الطريق لتحيا سورية"، 1947/10/31.
[4] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد السادس 1942-1943، "الوطنية والأريحية في المغترب"، 1943/07/01.

دون الصغيرة وللقضايا الأساسية الجوهرية دون المسائل السطحية العرضية."[5]

أما المقبلون على الدعوة القومية الاجتماعية، فلقد جذبهم تفكير الزعيم القويم ونظراته العميقة فاطلعوا على أفكاره والتزموها مختارين ومقتنعين بالمبادئ التي تنطوي عليها، والمفعمة بقيم الحق والخير والجمال.. وصاروا صفوفًا منظمة من آلاف السوريين معلنين بدون شروط ولاءهم وتأييدهم ومحبتهم لزعيم الأمة - القائدِ الأعلى الجريء الذي واجه الخنوع والخوف والجبن ولم تضعفه الصعوبات، بل رحب بالموت طريقًا لحياة الأمة. وفي هذا الإعلان الصريح وهذا التأييد العقلاني المطلق وهذه المحبة الصادقة تتجلّى الديمقراطية الحقّة بأعلى مراتبها وأسمى معانيها. فكل واحد منهم، وبناء على اطلاعه واقتناعه الواعِي، يؤدي بإرادته الحرّة قسَم اليمين مؤكدًا انتماءَه إلى حزب النهضة بكل إخلاص وعزيمة صادقة، واعتناقه المبادئ القومية الاجتماعية إيمانًا له ولعائلته وانخراطه في تحمّل أعباء النهضة والقيام بواجباته الالتزامية نحوها. وفي هذا القَسَم - الإعلان الصريح يتجلى التعاقد الإرادي العميق بين العضو وصاحب الدعوة وهو تعاقد غير اعتيادي يقوم على الإيمان والالتزام بحمل رسالة النهضة والعمل لتحقيقها وانتصارها. إنه فعل إرادة وبطولة والتزام، وتعبير جليٌ عن شرف الواجب والتضحية والوفاء.

إن من يقرأ قَسَم الزعامة وقسم العضوية يَلْحَظ العلاقة بينهما من خلال القواسم الجوهرية. هذه القواسم نلخصها بما يلي:

أولًا، قضية الحزب:

إن قضية الحزب الكلية والأساسية، التي هي قضية الوطن السوري والأمة السورية وحياتهما ومصلحتهما، هي الأساس المشترك الذي يجمع "الشارع صاحب الدعوة" والمقبلين من السوريين على دعوته إلى القومية الاجتماعية، إذ يؤكد كل طرف (الزعيم والعضو) في قسم اليمين إيمانه بهذه القضية الصحيحة السامية، قضية حياة المجتمع ووحدته وتقدمه، وتكريس حياته للدفاع عنها والعمل من أجل انتصارها. هذه القضية القومية الكبرى، قضية الحياة والعز للأمة، قضية إرادتها وحقوقها وحريتها واستقلالها وسيادتها على نفسها، هي لبُّ التعاقد العميق والوثيق بين صاحب الدعوة وبين المقبلين عليها.. وهي قضية مقدسة لأنها "قضية خير وفلاح وعز قومي اجتماعي"[6] ولأنها "تعبر عن كل الحق وكل الخير وكل الجمال وكل السعادة وكل الصداقة وكل القيم العليا التي يحتاج إليها مجتمعنا لينهض وتكون له حياة جيدة.."[7]

ثانيا، المبادئ القومية الاجتماعية:

المبادئ القومية الاجتماعية التي جاء بها سعاده هي المحور الأساس الذي يربط قسَم الزعامة بقسَم العضوية. الزعيم يتعهد في قَسمِه بأن يكون أمينًا للمبادئ التي وضعها وأصبحت تكون قضية الحزب الدائمة. أما المنتمي إلى الحزب فيتعهد بأن يتخذ المبادئ إيمانًا له ولعائلته وشعارًا لبيته. فالمبادئ المكوّنة للعقيدة القومية الاجتماعية، إذًا، هي مبعث الإيمان والقوة المحرِّكة والضياء المنير. إن عظمة الحزب السوري القومي الاجتماعي وثباته يعودان إلى هذه العقيدة الجليّة التي تختصر حقيقة الحزب وتقف وراء نظامه وقوته. إن الإيمان بهذه العقيدة هو الذي يحرّك النفوس المؤمنة المتسامية "فوق آماد المنون" ويدفعها للعمل والصراع لبناء عظمة الأمة. لذلك يقول سعاده: "بهذا الإيمان بمبادئنا، بأمجادنا، بحقيقتنا، بأننا قضية، بأننا الخير والحق والجمال كله، نحقق كل ما هو سامٍ وجميل وخيّر للمجتمع."[8]

القوميون الاجتماعيون يؤكدون على إيمانهم بروح هذه المبادئ ويحملون حرارتها المحْيِية ليس لكونها أقوالًا جذّابة ومتناسقة، بل لأنها تشكل قوة روحية عظيمة، "قوّة حيّة فاعلة" تُسيّرُ اتجاهًا جديدًا وتعبّر عن أماني المجتمع كله وعن آماله النبيلة.. هذه المبادئ هي الأساس العقَديّ الذي قام عليه بنيان الحزب بوصفه منظمة نهضوية، وهي التي تكوّن قضيته الأساسية وبدونها لا معنى للحزب ولا قيمة لقسَم اليمين. وكما يقول سعاده: "إنّ أساس قضيتنا هو في عقيدتنا المقدسة ـــ في مبادئنا، التي لا قضية بدونها."[9]

ثالثًا، المسؤولية الأخلاقية:

المسؤولية تعني أن يتحمل الشخص تبعات التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية، أي أن يتحمل تبعات الأفعال التي يلتزم القيام بها. أما الأخلاق فهي مجموعة المبادئ والقواعد والصفات المستقرة في النفس والتي تُنظّم السلوك الإنساني. ويمكننا القول أن المسؤولية الأخلاقية هي مسؤولية واضحة جلية أساسها الإيمان القومي الاجتماعي وتُحتِّمُ الوفاء بالعهد المقطوع في القَسمِ وفحواه الالتزام الكامل بقضية حياة الأمة ورقيها والتي

[5] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد السادس 1942-1943، "دروس قومية اجتماعية – اليمين"، 1943/09/01.
[6] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد الثامن 1948 – 1949، "لا مفر من النجاح"، 1949/04/19.
[7] أنطون سعاده، المحاضرات العشر 1948، منشورات عمدة الثقافة، بيروت، 1976، ص 26.
[8] أنطون سعاده، المحاضرات العشر 1948، ص 45.
[9] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد السابع 1944-1947، "خطاب الزعيم في العيد القومي"، 1944/1/15.

بانتصارها تتحقق الحياة الجميلة لشعبنا السوري وترتقي هذه الحياة إلى أعلى درجات الرقي الإنساني.

والمسؤولية الأخلاقية هي مسؤولية كاملة تعني تعهدًا بالعمل الخلقي أي التزامًا بالأمانة والصدق والإخلاص ومحبة الشعب والتمسك بالفضائل النبيلة والسعي لتحقيق وجود سامٍ خالٍ من الكذب والدجل والنفاق والخداع والغدر والحقد والتعصب وكلّ المثالب الاجتماعية والآفات الأخلاقية.. فالزعيم تعهد أن يكون أمينًا للمبادئ التي وضعها، وهو القائل: "نحن لا نتاجر بالمبادئ، ولا بالصداقات، ولا نُخْلف الوعد، ولا نستهزئ بأماني الشعب، ولا نحتقر حاجاته ورغباته. نحن نؤمن بحقيقة الشعب، ونعمل لحقيقة الشعب. نحن نقدّس آلام الشعب ونبذل نفوسنا فداءً للشعب. نحن لا نستهزئ، ولا ندوس أماني الشعب بأقدامنا، بل نرفعها على هامنا ونبذل دماءنا ونفوسنا في تحقيق أماني الشعب."[10] أما المقبل على الدعوة، فيقطع عهدًا مبنيًا على الاطلاع والإدراك والإيمان وحرية الاختيار بأن ينتمي إلى الحزب بكل إخلاص وعزيمة صادقة.

إذًا، القسَم هو التزام إرادي – أخلاقي، في الدرجة الأولى، بما تعهد به الزعيم وبما يتعهد به المقبل على الدعوة. وهو التزام واضح تجاه الحزب وأعضائه وقضيته العظيمة يتجّسد نضالًا وعطاءً وبطولات في حياة القومي ويتجّسد جهادًا وآلامًا وعطاءً سخيًا وتضحيات حتى الاستشهاد من قبل الزعيم. إنه التزام عقلي واعٍ وذو امتداد اجتماعي نابع من الوجدان القومي الحي، النقي، القصد منه خير المجتمع وارتقاؤه. وهذا الالتزام الصادر من إرادة حرة لا يُعبّر عن نية صادقة أو تمنيات فحسب، فما "أغنت النيات عن الأعمال، ولا قامت التمنيّات مقام الأفعال"[11]، بل يُعبّر عن عزيمة صادقة ويترتب عليه أفعال وتبعات وتضحيات. فهو ليس مجرد تعهد كلامي، بل تعهد فعلي يترجم عملًا وتضحيات. وهو ليس تعهدًا مؤقتًا، بل تعهد دائم لا رجوع عنه.. هو عهد يربط بين الإيمان والعمل، بين القول والفعل، وبين النظرية والتطبيق. هذا العهدُ هو انعكاس لإيمان عظيم ونفسية قوية المعنويات ومناقب سامية انبثقت من فكر الزعيم ومبادئه وتجسّدت بشكل فعّال في سلوكه وجهاده وتتجسّد بشكل إرادي وعملي في سلوك القوميين الاجتماعيين القائمين بواجباتهم والمقتدين بزعيمهم. هذه هي نفوسنا التي تطفح بغايات عظيمة، وهذا هو إيماننا العظيم بمبادئنا وقضيتنا، وكما يُعبّرُ سعاده، "بهذا الإيمان، نحن ما نحن!! وبهذا الإيمان نحن ما سنكون، وأنتم تعرفون ما سنكون!!"[12]

رابعًا، مبدأ الواجب القومي:

قسم الزعامة وقسم العضوية يرتبطان بمبدأ الواجب القومي الذي يُشكِّلُ إحدى دعائم الدولة القومية الاجتماعية الأربع: الحرية، الواجب، النظام، القوة، التي ترمز إليها أربعة أطراف الزوبعة القومية الاجتماعية الممثلة في عَلَم الحزب السوري القومي الاجتماعي.

قسم الزعامة يؤكد أن ما تعهد به سعاده لم يكن إلا تلبية لنداء الواجب القومي تجاه وطنه وأمته وهو الذي آمن بالأفعال والتفكير العملي لأن العصر الذي نعيش فيه هو "عصر أعمال، لا عصر أقوال"[13]، معتبرًا أن استقلال الوطن لا يأتي عفوًا وبأن الواجب الوطني يقضي بأن لا نغمض أعيننا ونصمّ آذاننا عن نداء الواجب في إنقاذ الشعب السوري الذي "يقاسي الذل والفقر والإهانة من الأوصياء الاستعماريين."[14]

إن لمبدأ الواجب قدسية عند سعاده وهو الذي ناشد السوريين المغتربين مرارًا لعدم التخلي عن واجبات الشرف القومي وعن العمل لإنقاذ الوطن، كما طالب "شبان سورية كلهم، أينما كانوا وحيثما وجدوا"، بأن "يكونوا يدًا واحدًا لإنقاذ الوطن من المعتدين عليه" وبأن يقوموا بواجبهم نحوه بكل أمانة وإخلاص دون إصغاء لأقوال فلاسفة الكسل والخمول.[15] وهو الذي تخلى عن حبه لحبيبته الأولى إدفيك كي لا يهمل واجبه القومي تجاه سورية التي كانت محور حياته. وهو أيضًا الذي قال في مقطع من مقاطع أدبه الرفيع: لو لم أكن أنا نفسي "لوددت أن أكون جنديًا دعاه الواجب القومي."

سعاده، بعد أن طرح على نفسه السؤال: "ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟" وبعد البحث والتنقيب، قرَّرَ أن يلبي نداء الواجب ويقوم بالأعمال الكفيلة بتغيير واقع مجتمعه الانحطاطي وبإصلاح حالة شعبه الذي حلَّ فيه الويل وتغلغل الفساد في جميع طياته وأصبح في حالة مرض وشلل.. نذرَ نفسه لإنقاذ أمته من الانحلال والفناء ولاستئصال الفساد وإصلاح أمر الشعب وتحقيق نهضته وحياته الحرّة الجميلة. لذلك أعلن في القسَم: "أنا أنطون سعاده أُقسم بشرفي وحقيقتي على أن أقف نفسي على أمتي السورية ووطني سورية عاملًا لحياتهما ورقيهما.." وفي هذا الإعلان يتجلى سموُّ الممارسة لمبدأ الواجب المناقبي، واجب الشرف في العمل لأجل الأمة وكرامتها. فسعاده، المعلم – القدوة، الذي مشى في الحق ولبى نداء الواجب الذي لا مفر منه معبّرًا عن إرادة الأمة وعن قيمها الحقيقية ومناقبها الجميلة الجديرة بحياة جديدة، قال: "نحن لم نتلكأ عن واجب لأن الواجب مبدأ أساسي من مبادئنا الأخلاقية."[16]

[10] المرجع ذاته.
[11] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، 1940-1941، سورية والحرب الحاضرة – نداء الزعيم إلى الشعب السوري 1940/06/01.
[12] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد الثامن 1948 – 1949، ملحف رقم 9 – خطاب الزعيم في اللاذقية، 1948/11/26.
[13] أنطون سعاده، المحاضرات العشر 1948، ص 52.
[14] أنطون سعاده، الآثار الكاملة – الجزء الأول، مرحلة ما قبل التأسيس، 1921-1932، "آمال الوطن"، 1921/06/04، ص 16.
[15] أنطون سعاده، الآثار الكاملة – الجزء الأول، "سورية تجاه بلفور"، ص 186.
[16] ملحق رقم 9، خطاب الزعيم في اللاذقية، 1948/11/23.

وفي قسَم العضوية، يتجلى مبدأ الواجب الأخلاقي في الكلمات والموجبات التي يتعهد المنتمي إلى الحزب تطبيقها وهو رافعٌ يدَه اليمنى زاوية قائمة، حيث يبدأها بعبارة جليلة: "أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي" ويختتمها بعبارة صريحة: "وأن أفعل واجباتي نحو الحزب بالضبط. على كل هذا أقسم أنا..."

خامسًا، المسؤولية الاجتماعية

القسم الحزبي يضع على المنتمي إلى الحزب مسؤولية اجتماعية ويسمو به إلى الحياة المجتمعية والإنسانية الرفيعة، بكل ما فيها، من مُثل وقيم ومبادئ ومعايير. وهذه المسؤولية تقتضي أن يرتبط المنتمي إلى الحزب مع رفقائه للعمل معًا من أجل قضية تساوي وجودهم، فتجمعهم الروحية الواحدة والمحبة القومية والغاية السامية. إنه ارتباط كلي بالجماعة التي وعت حقيقتها والتي عقد أفرادها "القلوب والقبضات على الوقوف معًا والسقوط معًا في سبيل تحقيق المطلب الأعلى المعلن في مبادئ الحزب السوري القومي وفي غايته."[17] وهذا الارتباط يطوّر شعور العضو الاجتماعي وإحساسه الداخلي بالانتماء إلى جماعة يشترك معها في الهموم والمصير فيربط مستقبله بمستقبلها وينعكس كل ما يصيبها على نفسه، كما ينعكس كل ما يصيبه عليها. يندمج هذا الشعور في فكر واحد واتجاه واحد وحركة واحدة، تدفع بالمؤمنين للعمل بتعاون وانسجام وتفانٍ في سبيل خير المجتمع ونهضته.

والمسؤولية الاجتماعية تستوجب من المنتمي إلى الحزب أن يكون إيجابيًا وصادقًا في تعامله مع رفاقه ومخلصًا لهم وللقضية التي آمن بها، فلا يخون حزبه ولا أعضاءه ولا يكنّ لأي منهم إلا المحبة والوفاء والإخلاص، فيتعامل معهم بصدق ومحبة واحترام، ويتمنى لهم الخير كما يتمناه لنفسه، ويقدم كل مساعدة يتمكن منها إلى أي عضو عامل من أعضاء الحزب متى كان محتاجًا إليها. إن ما يجمعه برفقائه هي الروحية الواحدة والقضية الواحدة وهذه القضية، كما يقول سعاده، هي "ليست قضية حلم، ولا قضية أشواق عمياء تائهة"، بل "قضية اتحاد قومي حقيقي" تجمعهم "في مطلب قومي اجتماعي أعلى واحد يطلبه الجميع بقلوب نقية صافية يندهش من إخلاصها الذين ربيت نفوسهم في جو المخاتلة والخداع والرياء والمواربة ويأبون أن يصدقوا ما تراه أعينهم وتسمعه آذانهم."[18]

في الخلاصة، إن التعاقد مع سعاده - الزعيم هو فعلٌ نبيل نابع من الإيمان الجديد وهو تعاقد عقلاني- وجداني دائم لا ينفك بغياب سعاده الجسدي، لأن زعامة سعاده لم تنته باستشهاده. فهذه الزعامة ستبقى قائمة لارتباطها بقضية الأمة وحقيقتها. لقد تساءل سعاده: "ما هو الفارق بين الزعيم والقضية؟" "أليس بسعاده وُجدت القضية؟" "كيف نفرّق بين أنطون سعاده والقضية السورية القومية، وكيف يمكن للقوميين أن يتناولوا القضية ويتحدثوا عنها من غير أن يذكروا الزعيم ويذكروه كثيرًا؟"[19] إذًا، هنالك حالة إتحاد بين سعاده والقضية القومية وهذا الإتحاد يعني ان التعاقد مع الزعيم هو تعاقُد مستمر لأنه تعاقد على القضية القومية لا على قضية أشخاص. أنه تعاقُد مع الفكرة التي يمثّلها سعاده وهي فكرة حيّة لا تموت، فكرة تجسّدت في المبادئ السامية التي وضعها للأمة السورية وفي الحركة القومية الاجتماعية التي أطلقها لحمل هذه المبادئ والانتصار بها في صميم الشعب. وقد عبّر سعاده عن حقيقة تمثيله المبادئ القومية الاجتماعية عندما قال: "إن أنطون سعاده لا يعني فقط أنطون سعاده بل يعني مبادئ نهوض هذه الأمة وتبوئها مقام الشرف والعز."[20]

أنه تعاقد مع الزعامة القومية التي جاءت لتنقذ مقدّرات الأمة السورية من أيدي المشعوذين والدّجالين، فنظرت إلى مصلحة الشعب ومستقبل الأمة وعبّرت تعبيرًا وافيًا عن مصلحتها وتطلعاتها. إنه تعاقد مع الزعامة الهادية التي تمثل فِعلَ إشعاع دائم مستمر لا يخبو ولا ينطفئ. زعامة حيّة تشعُّ أنوارًا تضيء للأمة طريقها لتصل إلى مراتب العز والمجد.

إنّ أبناء الحياة اختاروا السير على طريق الحق اقتداء بزعيمهم الخالد وأقسموا يمين الانتماء إلى حزب المبادئ والقضية المقدسة، وهم يعرفون أن طريقهم شاق وطويل لأنه طريق الصراع والبطولة المؤمنة، طريق العز والحياة الجديدة المشرّفة.. وهم يسيرون إلى تحقيق غايتهم السامية بعزم وتصميم وإرادة لا تلين. يسيرون مؤمنين إيمانًا تامًا بنصرهم الأكيد لأنها مشيئة القضاء والقدر.

[17] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد السادس 1942-1943، "الزعامة السورية والزعامة الهندية".
[18] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد السادس 1942-1943، رحلة الزعيم إلى خونين وكوردبه، 1943/06/15.
[19] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، "عيب الحزب السوري القومي"، 1941/11/01.
[20] أنطون سعاده، الأعمال الكاملة، المجلد السابع 1944-1947، "حديث الزعيم إلى مجلة الكوكب"، 1947/08/20.

في أول مارس

بقلم الأديب سعيد تقي الدين

في سنة 1946 وجه سعيد تقي الدين - وكان عامئذ في الفلبين - رسالة إلى صديقه محيي الدين النصولي قال فيها: "سينقذ الأمة من أسميه رجل رأس بيروت، ولقد أطلقت عليه هذا الاسم لان كتفيه ستكونان اعرض من صخور الروشة، ورأسه ارفع من المنارة". ومن الغريب أن الكاتب سنة 1946 لم يكن قد سمع بعد بمن هو اليوم موضوع مقاله هذا.

لم أعش بعد أن انجلى عني ظل إلا مرات ثلاثًا في ظل إنسان، استمرت أولاها شهورًا ستة حين لجأت - هكذا تبدو الحقيقة اليوم - إلى مكتب كامل حماده في «مانيلا»، فعقدت معه شراكة أقاسمه فيها أرباحًا مرجوة. وبينما نحن ننتظر الأرباح، كثيرًا ما فصلت بيني وبين الجوع إشارة بقلم رصاص يدونها كامل حماده أمرًا لأمين صندوقه بدفع ريالات خمسة. وفيما كان الامتنان يغمر قلبي ولا أفوه به إذ ذاك، وانتشي بإذاعته اليوم كنت كثيرًا ما يتآكلني البغض - بغض كامل حماده - وأسائل نفسي: أي حظ، أي نظام، أي قدر حكم ظلمًا فجعل من هذا الرجل محسنًا وجعل مني محسنا إليه؟

وفي حزيران الماضي عشت ساعات اربعًا في ظل رجل آخر هو شارك مالك، حين خلوت به في «النادي الدولي» أتحدث إليه لأحدث الناس عنه. واني على شغفي به لم املك نفسي خلال تلك الساعات من كبح موجات من النار تثور في نفسي وانا أسائلها: لما أحدث الناس عن هذا الرجل بدلا من أن يتولى هو التحدث الى الناس عني؟ إن كان في الدنيا من لا ينقم على نفسه لأنها ليست في الذروة فهو إله يعبد أو صعلوك لا شأن له.

وان مقياس كبر النفس ليس في انعدام هذا الشعور بالنقمة وهي من حوافز الطموح، بل في أن تتهرأ هذه النقمة على نفسك، فتصبح حسدًا لسواك، أو في أن تتصلب وتخشن فتنطلق عدوانًا لئيمًا ينتقص من قيمة من يفوق عليك.

واليوم - وهذه هي المرة الثالثة التي أحيا خلالها في ظل إنسان - إذ أصبحت القومية الاجتماعية دفة حياتي - أسائل نفسي: هل انعدم في نفسي شعور النقمة على خالق هذه العقيدة بسبب أن جسده دفين؟ أتراني كنت انضممت إلى صفوف القوميين الاجتماعيين لو أن مبدعها لم يضم رفاته التراب؟ أكانت أنانيتي وكان اعتدادي يردعانني عن الاعتراف بتفوق مخلوق؟ وقد يكون من السهل الكذب والجواب «نعم» أو من مجاورة الحقيقة أن أقول «لا أدري». ولكن الذي يعنيك من هذا الأمر ويعنيني هو أنى اليوم اشد احترامًا لنفسي، إذ أقررت بفضل كامل حماده وأحببته، وحين وجدت لذة بان أتحدث عن شارل مالك.

وهذه النون المتقعرة بين ألفين صميم الـ «أنا» هذه الذات التي عبدتها وطالما ازدهيت بها، والتي من صلب العقيدة القومية الاجتماعية وأول شروطها أن تذوب وأن تفنى، أحقًا أنها امّحت؟ أليس العبث أن يقوى الإنسان عن أن يفني نفسه وان يذوب؟

الجواب بسيط ليس فيه اضطراب ولا تناقض، بل إن فيه حقيقة وعمقًا. إن الواحد منا يحيي نفسه ويذكيها إذ ينكرها. إن أشهى لقمة تأكلها هي لقمة تطعمها لسواك. إن الأمومة التي جوهرت نفس أمك وأمي

ورفعتهما ووسمتهما بطابع الألوهية، إن هي إلا إنكار الذات وتذويبها وإفناؤها، وبالتالي إحياؤها.

يسألونني: هل عرفت ذاك الذي نفذ عقيدته فناء بخلود؟ أقول لقد اجتمعت إليه مرتين خلت ثانيتهما طويلة. واليوم أرى انهما جاءتا تمهيدًا لاجتماعات مقبلة. وها أنا اجتمع إليه كل يوم من جديد وأتعرف إليه كل ساعة.

لعل أرخص أنواع البوح عن النفس هو الكلام. قد يكون المهندس أشد إفصاحًا عن عبقريته حين يصمت مشيرًا إلى الطريق التي اشتقها، والجسر الذي بناه، والقصور التي شادها. هذه الطريق التي أسير ويسير عليها الألوف من الرفقاء اشتقَّتها يداه. وهذا الجسر الذي وصل ماضيًا بعيدًا مجيدًا بمستقبل قريب مجيد هو الذي بناه. وهذه القصور التي شادها صاحب العرزال في نفوس المواطنين، كلها تحدث بالتصاميم والخرائط والبناء التي صنعتها يدا رجل الجيل الجديد.

في تاريخنا الحديث ظهر في بلادنا من أوحى البطولات نقمة على شيء، واستثار الناس الى هدمه. لأول مرة في تاريخنا الحديث ظهر من استثار البطولات استنفارًا لصنع شيء، وكانت النقمة في هذه البطولات عنصرًا جزئيًا لا الحافز الطاغي.

ان البطولة تمجد كيفما ظهرت. ولكن البطولة التي تحدوها بهيمية البغضاء فحسب، لا تبني ولا تحيا، بل هي تنتحر حين تفترس. هو ذا تاريخنا في كلمتين بعد عهد الاستعمار: افتراس فانتحار. أما القومية الاجتماعية فهي أبعد ما تكون عن الحقد والعداء والبغضاء، فهي تسمو كلما انتصرت، لأن الافتراس والتهديم ليسا من حوافزها. وهذه العقيدة ليس لها حد تقف عنده، إذ إن الانتصار المتجسد بتحقيق هدف جغرافي حدّده العلم والتاريخ والمنطق والمصلحة - هذا الانتصار ما هو بالغاية النهائية الكبرى التي تهدف إليها، بل إن هذا الانتصار هو نتيجة جزئية محتمة لانتفاض النفس القومية الاجتماعية، التي لا حدود لإمكانياتها. اذًا فحركتنا هي بطبيعتها أبدًا متجددة منطلقة تأبى الوقوف عند حد أو الجمود أو الركود. فنحن لن نصل الى يوم نهلل فيه: قد وصلنا.

ولقد سبق أن قام في هذه الأرض من جمهر الناس إغراءً أو تخويفًا أو تملقًا ووعودًا. ولكن من معجزات رجل الجيل الجديد - وأعماله لا توصف باقل من أنها معجزات - بل إن من معجزات رجل الجيل الجديد انه استهوى بالحقيقة وبالعلم المجرد، فجاء الإيمان بعقيدته أقوى الإيمان لأنه استهوى من النفس البشرية اسمى عواطفها واعمق مداركها، لا بهيميتها ولا أثرتها، ولأنه دلها على الاقتدار الكامن فيها - في الروح التي يحيا بها جسدها، وفي الجسد الذي هو جهاز روحها، ولأنه عرف أرضها جبهة يقاتل من أجلها مواطنون وفيها ينتجون.

إن الذي ولد في أول مارس، وارتفع رأسه الى أعلى من منارة رأس بيروت، وعرضت كتفاه فهما أقوى من الروشة وأضخم. هذا الرجل يمد فيئه في هذه البلاد يومًا بعد يوم. وإن الألوف من الرجال والنساء هم اشد احترامًا لأنفسهم وثقة بها وبمستقبل الأمة لأنهم يعيشون في ظل عقيدته.

نحو فهم أعمق لقضية التعاقد

بقلم وكيل عميد الثقافة

الرفيق إبراهيم مهنّا

غاية الحزب بعث نهضة سورية قومية اجتماعية، تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمة السورية حيويتها وقوتها، وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تامًا، وتثبيت سيادتها، وإقامة نظام جديد يؤمن مصالحها ويرفع مستوى حياتها والسعي لإنشاء جبهة عربية."

قد يبدو تعاقدا شبيها بكل تعاقد قانوني أو تجاري، عناصره طرفان وموضوع، وشروطه رضى وإشهار وأهلية، وله مدة مصرح عنها، وعليه، ما الفريد في التعاقد القومي الاجتماعي؟

الواقع انه أعمق بكثير ومن لم يغص في جوهر هذا التعاقد وعمقه فانه يحمل نقيصة ممارسة تعاقد سطحي مبني على فهم ناقص.

هو بالأساس دعوة وبيعة وعهد وهذه معاني تتقاطع وتتكامل، هو دعوة لتحقيق قضية، بين مقبلين على هذه الدعوة وصاحب الدعوة.

هو تعاقد على قضية عظيمة، قضية خطيرة تساوي وجودنا. اهم غاية هذه الدعوة هو تأسيس دولة أو إعادة تأسيس دولة منهارة منذ أكثر من الفي سنة، وهي الدولة السورية المركزية التي انهارت منذ زمن ففقدت امتنا سيادتها على نفسها ودخلنا في عصر التراجع والتدهور والانحطاط وقاربنا الاضمحلال. نتيجة تدهور السيادة القومية لم يبقى فاتح لم يحتل بلادنا فاندثرت هويتنا وتفسخت وحدتنا وروحيتنا. كل الدول في التاريخ تنشأ في سياق التطور الاجتماعي. تبين لنا دراسة التاريخ أن الدولة تنشا بعوامل الحاجة الى الإدارة، إدارة الأشكال الاجتماعية أيا كانت درجة تطورها، فتنبثق السلطة وتتطور أشكالها وآليات إدارتها أو ممارستها، وتنشأ القوانين للتنظيم وتتشكل المؤسسات وتتطور.

وحدها القومية الاجتماعية خالفت هذا السياق، لقد تنكبت تأسيس الدولة السورية. تأسيس الدولة السورية بالتعاقد. هو تعاقد على تأسيس دولة، بالأحرى لعلها الدولة الوحيدة في التاريخ التي تتأسس بالتعاقد. هذا أول عظمة للتعاقد في نظامنا.

في تاريخنا الحديث دولتان تأسستا فقط بالإرادة هما الدولة اليهودية والدولة السورية. نعم رغم كل الملاحظات النقدية على الدولة اليهودية فإنها تأسست بإرادة أفراد ومؤسسات لإعادة تأسيس دولة منهارة مزعومة طبعا وقد نجحت في تأسيس دولة فريدة مخالفة كل قواعد الاجتماع البشري والسياسي كان إعلان اليهود واضحا في مؤتمرهم التأسيسي في بال عام 1893 غاية الصهيونية:"

والقومية الاجتماعية في دعوتها أطلقت دعوة لتأسيس الدولة السورية المعبرة عن إرادة الأمة، ودعت أبناء الأمة الى ملاقاة هذه الدعوة. من هنا عظمة الدعوة وخطورتها.

ثاني سمة هامة أن التعاقد ركنه قسم أو يمين. لذلك أرقى ما في التعاقد انه يبني ضمان التزام المتعاقد على شرفه، على التزامه الأخلاقي. وهذا في بنية الدعوة أن الأساس الأخلاقي هو أساس النهوض والالتزام. إن المقبل على الدعوة يعلم أن ما يقيد التزامه هو قيد أخلاقي فقط. هو حلف يمين. في هذا التعاقد تضمحل شخصية المتعاقد التقليدية ليتحول الى كينونة مناقبية أخلاقية هويته الواجب والشرف. الفرد يلتزم بإرادته ويفك التزامه بإرادته وهذا أرقى أشكال الحرية. المتعاقد يساوي قسمه.

من النصوص القيمة التي تؤكد على أهمية اليمين وعلاقته بالواجب يقول سعاده:

"لليمين، خطورة عظيمة جداً في علاقات المجتمع الإنساني وروابطه. وهي بطبيعتها تصبغ الأمور المقطوعة لها بصبغة الواجب الذي لا مفر منه، إذ اليمين توضع للأمور العظيمة دون الصغيرة وللقضايا الأساسية الجوهرية دون المسائل السطحية العرضية"

المسألة الثالثة أن المقبل على الدعوة لا يبغي شيئا لنفسه. لم تعده القومية بشيء. لا بل هو جاهز ليقدم كل ما تتطلبه القضية دون تردد، كل أشكال العطاءات والتضحيات الفردية وصولا حتى الاستشهاد، لذلك هي مغايرة عن كل الخط الفردي الأناني المنفعي الذي سطا على

عودة إلى الرئيسية

النفوس وجعل التيار السائد يعاملنا ب استهزاء لعدم قدرتهم على فهم مضامين النهضة الأخلاقية بمنظار غير فردي ليبرالي.

. المقبل على الدعوة يقبل على الدعوة ويضحي بكامل رضاه ووعيه وإرادته، في سبيل المصلحة العامة، في سبيل الأمة، في سبيل شرفها وعزتها وكرامتها. وهذه مسألة عميقة ودقيقة. هذا قمة الوفاء وحفظ الجميل. من قواعد هذه القاعدة أن" الدماء التي تجري في عروقنا ليست ملكا لنا بل هي وديعة الأمة فينا متى طلبتها وجدتها ". إن اختيار كلمة وديعة تعبر عن دقة الوصف والعلاقة بين الأمة وأبنائها.

إن الصفات الثلاثة المذكورة سابقا ترفع من شروط التعاقد ومن صعوبة تحوله الى عمل جماهيري.

ننتقل الى موضوع التعاقد. هو تعاقد على قضية عظيمة، قضية خطيرة، قضية نبيلة، قضية تحتاج صراع وتضحية عالية جدا. وعليه هذه القضية لا يمكن أن تحملها الأكتاف العادية. فلا يقبل عليها إلا من توفرت فيه الشروط الأخلاقية ونعني بها الفضائل الأخلاقية وقوامها الصدق والوفاء والنزاهة والأمانة والإخلاص أيضا فضائل التضحية والعطاء، وتكملها الفضائل النفسية أي الالتزام الإرادة والعزم والإصرار والصلابة والثبات.

كل ذلك دون مقابل فردي. وحده المقابل الجماعي خير الأمة وحياتها ومصلحتها هز مبتغى المتعاقد.

نعم المقبل على الدعوة يعلم من اللحظة الأولى أن القومية لن تقدم شيئا لفرده ولا تعده بشيء. وهنا أهم مسألة وهي اضمحلال الأنا الغيرية المرضية من كل العملية. الطرف المقبل على التعاقد هو الإنسان الجديد الذي سيحمل هذه القضية ويتفانى لتحقيقها. ليس عبثا أن يسميه سعاده إنسانا جديدا. لا يمكن التهاون أبدا في هذه الشروط. هذه اهم قاعدة أخلاقية في المسألة أي تعاقد المقبلين على الدعوة، لان هذا تعرض الدعوة للميعان، وهذا أخطر ما أصاب الحزب في تاريخه حين تم التهاون فيها.

لنبدأ بالطرف الأول صاحب الدعوة أيضا هو يرتبط مع المتعاقد أيضا بقسم، ويقسم بشرفه أولا وحقيقته ومعتقده ثانيا فيتساوى مع المقبل على الدعوة فيما يقسم عليه. كل كينونة الفرد يقسم بها. الشرف والحقيقة والمعتقد، ماذا يبقى من الفرد إذا؟ والأهم انه اقسم على أن يقف نفسه في سبيل امته. الوقوف هو أرقى أشكال العطاء والالتزام الأخلاقي. أي عطاء أرقي من هذا العطاء؟ وقد وقفه حتى الاستشهاد دون أدنى تردد. كل التقديمات التي قدمت له لم تجذبه مقابل التخلي عن هذا الإيمان هذا والالتزام. كل الشروط الأخلاقية توافرت في الزعيم وقد مارسها وجسدها.

اما موضوع التعاقد فهو قضية عظيمة نبيلة وهي قضية صعبة، نحن تعاقدنا على تحقيق غاية وهي بعث أمة وتحقيق نهضة واستعادة سيادة وتأسيس دولة. امام ذلك صعوبات جمة.

ان **الرضى** في العقود العادية قوامه كلمة نعم وتحصل الموافقة. موافقة لحظية.
أما في القومية الاجتماعية فيستلزم عناصر أخرى. يستتبع طاعة السلطة ويستلزم القبول بالمصاعب والمشقات ويحكم هذا الالتزام فقط الالتزام الأخلاقي.

اما **اشهار التعاقد** في القومية الاجتماعية فهو أيضا ليس إشهارا لحظيا فرديا، يتجلى استكمال الإشهار في مبدأ أن اجعله شعارا لي ولبيتي وهذا وارد فيما يقسم القومي عليه.، إشهار العقود لحظة واحدة تنتهي بكلمة نعم ويتم العقد. في العقود العادية شرط الإشهار، يجب طرح السؤال وإعلان الموافقة بصوت واضح. هو إشهار فردي طبعا، وتنتهي عملية الإشهار. أما الإشهار في تعاقد القومية الاجتماعية فهو دائم وليس فرديا، بل جماعيا اجتماعيا فيكون فعل الفرد في عائلته أولا.

العقد العادي يشترط **الأهلية** وهي الأهلية العقلية وأهلية السن فقط. في القومية الاجتماعية الأهلية مركبة ومتعددة هي أهلية أخلاقية وأهلية نفسية وأهلية عقلية وأهلية صراعية. لذلك هو إنسان جديد بكل معنى الكلمة، لا يمكن لإنسان قديم أن يتمم هذا العقد. هو إنسان جديد بكل ما في الكلمة من معنى.

نحن تعاقدنا على تغيير وجه التاريخ وهذا يجعله تعاقدا فوق العادة وإنكم ملاقون أعظم انتصار لأعظم صبر في التاريخ وهذا أيضا تعاقد فوق العادة.

جميعنا مدعوون لإعادة النظر في ما تعاقدنا عليه في موجبات التعاقد، في المزايا التي يتطلبها التعاقد، وفي فهمنا لم يترتب على هذا التعاقد، في إشهار التعاقد، في ضبط الـ"أنا" المَرَضية التي تدمر التعاقد. وحده الشارع صاحب الدعوة آمن بنا وآمن بأصالة شعبنا التاريخية، وآمن وصدق في آمن ومارس وصولا حتى الاستشهاد. أما المقبلون على الدعوة فأمامهم المراجعة أقله كيف يكون القومي بارا بقسمه معبرا وهو وثاقه الوحيد، وأيضا أن يراجع صدق التزامه وإخلاصه مضحيا بكل ما تتطلبه القضية لنجاحها، دون تردد أو تذمر.

أيا تكن التقديمات فهي رخيصة التي تقدمها الحالة اللانهضوية، حتى يكون معبرا عن جوهر التعاقد الذي اقبل عليه. نحن متعاقدون على امر خطير يساوي وجودنا، نحن مدركون تماما حجم الجهد المطلوب وحجم الصعوبات الملقاة مع ذلك تنكبنا هذا القرار العظيم.

نحن مؤمنون أن الأعباء المترتبة على هذا التعاقد كبيرة وشاقة وصعبة، من هنا قول سعادة:" إن أكتافكم أكتاف جبابرة" وأيضا قوله

عودة إلى الرئيسية

في مؤتمر المدرسين: "وإذا نظرنا في مهمة الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي يحمل رسالة النهضة السورية القومية الاجتماعية، وجدنا أنها أشق مهمة ظهرت في تاريخ أية أمة من الأمم، فليس، ولم يك قط، للفوضى التي تتخبط فيها الأمة السورية مثيل، ولم يبلغ الفساد في أمة من الأمم، في أي وقت من الأوقات، مبلغه في أمتنا إلى هذا الوقت".

نعم ليس تعاقدا يشبه أي تعاقد في التاريخ. لا تعاقد في التاريخ قام على هذا التفاني،

هو تعاقد خاسر بكل المعاني النفعية الفردية، ومع ذلك نحن متعاقدون بكامل قوانا العقلية والأخلاقية والنفسية على الإيمان والالتزام. الالتزام هو تجسيد الإيمان.

هو تعاقد تلزمه شجاعة فوق العادة وجرأة. لا يمكن للفرد العادي ان يحتمل هذا التعاقد. هذا رهن بنفوس غير عادية. أما أعلى ما يمكن أن تقدمه المؤسسة للقومي، أن تقول له لقد كنت بارا بقسمك، وفيا لما آمنت به، عاملا صادقا في صفوف النهضة وان تلفه بالزوبعة وتمنحه وساما.

هذه من ألغاز التعاقد التي لا يفكها إلا أبناء النهضة.

أما المتعاقدون فقد أصبحوا عائلة واحدة تحاوزت الروابط التقليدية العائلية أو الأثنية، يحكمها رابط واحد هو الوجدان القومية، تجمعهم قضية واحدة ومصير واحد. إن رتبة رفيق هي أرقى رتبة وصل اليها من مارسها. لقد اصبح الجميع رفقاء القضية الواحدة.

أساس التعاقد كله هو أساس أخلاقي مبني على الواجب القومي الاخلاقي، والتزامه بما يترتب على تحقيق هذا الواجب. من هنا حضور الواجب في معظم تراثنا.

في هذا التعاقد يتحول التأييد الى إجماع كلي كامل وتصبح شرعية التعاقد كاملة بالإجماع الإرادي للمقبلين على الالتزام بهذه المبادئ وهذا ويسميه سعادة الإجماع الفاعل بتمييزه عن الاجماع المطاوع. لأنه إجماع بالإرادة.

قضية التعاقد هي قضية نبيلة، قضية سامية، قضية عظيمة تتطلب جهودا وتضحيات فوق العادة، هي نبيلة بأهدافها ومستوى نفوس العاملين لتحقيقها، هي نبيلة لأنها تعمل لغاية شريفة وراقية.

بالخلاصة هو عهد أو بيعة من مستويات غير عادية، يتقاسم فيها الجميع التضحية على قاعدة المبدأ الثامن مصلحة سوريا فوق كل مصلحة.

هو تعاقد مبني على معرفة وفهم وإدراك ووعي عالي على إيمان صادق وإصرار وعزيمة والتفاني. هذه هي قوة الحزب النفسية.

أرقى ما في التعاقد في القومية الاجتماعية هي أخلاقية التعاقد بكل عناصره أخلاقية المقبل وأخلاقية الشارع، وأخلاقية القضية.

في مقالة للأمين شوقي خيرالله وصف هذا حياة المتعاقد بحياة الترسل، فالقوميون هم رسل نذروا حياتهم للقضية، وحملوا هذا الالتزام الى اقصى حدوده.

وعليه إن الفهم السطحي لهذا التعاقد يسقط عن كثيرين شرف العضوية، فالتعاقد بهذا المعنى هو شرف للمتعاقدين، يمارسونه في تجسيد إيمانهم والتزامهم به.

التعاقد هو قضية الشرفاء في هذه الأمة.

أخيرا، هو تعاقد أخذ على عاتقه تغيير وجه التاريخ والمتعاقد يهتف: لمجدك يا سوريا هذا القليل".

الزّعيم والحدود الشَّـرقيّة

بقلم الأمين وليد زيتوني*

تتناول مقدمة الدستور مسألة الانتماء الى الحزب السوري القومي الاجتماعي باعتبارها تعاقدًا حرًا وإفراديًا بين الشارع صاحب الدعوة وبين المقبلين عليها، على أن يكون واضع أسس النهضة زعيم الحزب مدى حياته، وان يكون معتنقو دعوته ومبادئه أعضاء في حزبه، مرفقًا بقسم الزعامة الذي يقف فيه سعاده نفسه على امته السورية ووطنه السوري عاملًا لحياتهما ورقيهما على أن يكن أمينًا للمبادئ التي وضعها، والا يستخدم الزعامة إلا في سبيل فلاح الحزب. وبذلك يشترط التعاقد أن يكون المقبل على الدعوة واعيًا للقضية، فاهمًا لمبادئها، مدركًا لحقيقتها عاملًا على نجاحها وانتصارها.

لقد أعاد حضرة الزعيم شرح المبادئ في محاضراته العشر بدءًا من كانون الثاني عام 1948، شرحًا مفصلًا تناول فيه كل الانحرافات التي حصلت في فترة غيابه القسري، كما وتصديه للمفاهيم التي تعيق مسار النهضة في تقدمها وانتشارها. مركزًا على معالجة مسألة فايز الصايغ وغسان التويني ويوسف الخال بالإضافة الى دحض "الواقع اللبناني" عند نعمة ثابت ومأمون أيّاس وغيرهما.

استطرادًا، يمكن القول بان كل المقبلين على الدعوة بعد هذا التاريخ، أي بعد إلقاء المحاضرات العشر، هم حكمًا مقتنعين ومؤمنين بحيثياتها وبنود شرحها عاملين على تحقيقها. وبالتالي النقد يتناول أي تحول [وهو ليس تحولًا] حصل على العقيدة في الفترة التي سبقت عام 1948 ليس في محله. لأننا نفترض بالمقبل على الدعوة اطلاعه على المحاضرات العشر وخاصة إذا كان من الكفاءات الفكرية.

معرض هذا الكلام يأتي في الرد على بعض الأفراد الذين يتشدقون بان تغييرًا في العقيدة أجراه أنطون سعاده على الحدود الشرقية للامة السورية غامزين من قناة تأثر سعاده بنظرية "المد الحيوي" الألمانية المنشأ الفكري. لقد استند هؤلاء الى دراسة قدمها لبيب زويا في إحدى الجامعات الأميركية بعنوان "الحزب القومي الاجتماعي"، فاستحضرها وعربها آنذاك جوزف شويري ونشرها، مع مجموعة من المرتدين الى الماركسية. وأصبحت منذ ذلك التاريخ مادة يستخدمها اليسار "الاورومركزي حديثًا" لنقد الفكر القومي الاجتماعي. مع العلم أن هذا النقد لم يقم على أي تحديد علمي أو تاريخي أو اجتماعي أو حتى سياسي، وان أصحابه لم يكلفوا أنفسهم التدقيق أو البحث أو حتى مراجعة المحاضرات العشر وخاصة المحاضرة الخامسة التي تتناول هذه المسألة بالذات.

يقول أنطون سعاده "الأمة تجد أساسها، قبل أي شيء آخر في وحدة أرضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتشتبك وتتحد ضمنها، ومتى تكونت الأمة وأصبحت تشعر بشخصيتها المكتسبة من إقليمها ومواد غذائها وعمرانها، ومن حياتها الاجتماعية الخاصة، وحصلت من جميع ذلك على مناعة القومية أصبحت قادرة على تكميل حدودها الطبيعية أو تعديلها، على نسبة حيويتها وسعة مواردها وممكناتها". لقد ميز سعاده بشكل واضح بين الحدود الطبيعية والحدود السياسية. فالحدود الطبيعية هي التي حضنت العناصر ضمنها إن كانت جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية والتي مكنتها من التصادم ثم التمازج لتكوين الشخصية السورية المميزة. أما الحدود السياسية فتكون على قدر حيوية الأمة وممكناتها. وبالتالي إن امتنا المجزأة والفاقدة الآن لسيادتها واستقلالها فترتسم فيها وحولها حدود سياسية لا تتطابق ولا تنسجم مع الحدود الطبيعية التي تسعى النهضة الى إرسائها وإعادتها الى حقيقتها ومنها الحدود الشرقية.

ويضيف سعاده: "إن تحقيقي اثبت وحدة البلاد واعطى التعليل الصحيح لوضعها وأسباب تجزئتها الخارجة عن حقيقتها. فثبّت منطقة ما بين النهرين ضمن الحدود السورية وأصلحت التعبير الأول [ضفاف دجلة] الذي كنت اعتمدته، بجعله أوضح وأكمل بإعطائه معنى منطقة ما بين النهرين الي تصل حدودها الى جبال البختياري، الى الجبال التي تعين الحدود الطبيعية بين سوريا وإيران". فمنطقة ما بين النهرين لم تكن تقتصر على الأرض بين دجلة والفرات فقط بل الأرض المجاورة الواقعة بين الصحراء العربية وجبال البختياري أو زغروس. وبالتالي إن التحديد السابق "حتى الالتقاء بدجلة" أو "الى ضفاف دجلة" كان تحديدًا غير جلي ولقد ترك مطاطًا ريثما يكتمل التحقيق في متناقضات المرويات التاريخية.

يقول سعاده في مكان آخر من هذه المحاضرة، توهم البعض أننا نعني بالبختياري مجاوزة البلاد السورية الى إيران. وهذا غلط فنحن لا نريد الدخول الى إيران، بل نريد تحديد بلادنا التي تتاخم إيران... ونعني أن جميع الأراضي المنبسطة بين دجلة والبختياري تدخل ضمن منطقة ضفاف دجلة المستعملة في النص السابق.

أخيرا، لا بد من القول لكل الذين وقفوا موقف الناقد من هذه المسألة، انه من الطبيعي أن نذهب من الشك الى اليقين، لا من اليقين الى الشك، فهذا يشكل ارتجاجًا بل ارتدادًا عن العقيدة التي آمنا بها طريقًا للخلاص والانتصار.

*** الأمين وليد زيتوني عميد ركن متقاعد في الجيش اللبناني. حائز على دبلوم في العلوم السياسية. تسلّم العديد من المسؤوليات الحزبية، من بينها عميد دفاع ونائب رئيس. يشغل اليوم مسؤولية رئاسة المؤتمر القومي.**

التعاقد: من التأسيس إلى المستقبل

بقلم الرفيق الدكتور سليم مجاعص*

قليلة في العالم هي الأحزاب التي تقوم على مبدأ التعاقد كما هو معهود في الحركة السورية القومية. وقد كان لهذا المبدأ أثر كبير على كينونة الحركة ومسيرتها. وجميع المبادئ والمفاهيم الإنسانية تحمل في داخلها ختم الزمن الذي نشاط فيه وتطورت وتبدلت حتى لو كانت تتخطى في تطلعاتها ذلك الزمن. لذلك كان درس المبدأ من الوجهة التاريخية مكملة للإحاطة بكامل معانيه ومتوجباته. فلننظر إلى تاريخ مبدأ التعاقد في الحركة السورية القومية.

نقطة الابتداء هي بالطبع التحديد الأول الرسمي لمبدأ التعاقد في مقدمة الدستور سنة 1937 وهو نص أساسي معتمد عند كل من تناول الموضوع: "تأسس الحزب السوري القومي بموجب تعاقد بين الشارع صاحب الدعوة إلى القومية السورية وبين المقبلين على الدعوة، على أن يكون واضع أسس النهضة السورية القومية زعيم الحزب مدى حياته، وعلى أن يكونه معتنقو دعوته ومبادئه أعضاءً في الحزب يدافعون عن قضيته ويؤيدون الزعيم تأييدًا مطلقًا في كل تشريعاته وإدارته الدستورية". وهذا النص يحدد ما بإمكاننا أن نسميه **"تعاقد التأسيس"** الذي قاد إلى قسمين: قسم الزعامة وقسم العضو. قسم الزعامة يحدد ما للزعيم وما عليه ويبلغ حدا أقصى لا يصله قسم العضو إذ إن سعاده يقف نفسه على أمته السورية ووطنه سورية، عاملًا لحياتهما ورقيّهما. ولا يتوجب على العضو "أن يقف نفسه" بل ان ينتمي إلى الحزب ويقوم بواجبات العضوية كما هي محددة في القسم والدستور والقوانين. أهمية التعاقد، تعاقد التأسيس، أنه يضع أساس شرعية مؤسسة الزعامة وشرعية تولي سعاده لمركز الزعامة المحصور بشخصه ولا يتكرر.

وقد تنبه الرفقاء الأولون في الحزب إلى أهمية الفرق بين القسمين وان على الرفيق الذي يريد ان لا ينتمي مستقبلا إلى الحزب أن يطلب "حله من قسمه" كما فعل الأمين فخري معلوف مثلا. فطلب الحل من القسم الذي قدمه الأمين معلوف يعني أن التعاقد ليس بين طرفين متساويين في الحقوق والواجبات وان حق فسخ التعاقد محصور في سلطة الزعامة. وهناك بالطبع معان إضافية للتعاقد في حياة سعاده لا نحتاج أن نتناولها لغرض موضوعنا وهي مبثوثة في نتاج سعاده خاصة مقالتيه "اليمين" و"المثالية الأولى" المتوفرة في أعماله الكاملة. ما نريد تناوله هنا هو مصير تعاقد التأسيس عند اغتيال سعاده، فمع اغتيال سعاده انتهت بالفعل مؤسسة الزعامة وصار من الواجب أن تعمد الحركة السورية القومية إلى مراجعة دستورها. وكان سعاده قد أشار في مواد مختصرة في الدستور إلى ما يتوجب فعله في حال غيابه النهائي على أن يتوسع بذلك لاحقا لكنه لم تتسنى له الفرصة لفعل ذلك.

بعد غياب سعاده تابعت السلطات الحزبية العمل بمبدأ التعاقد كأن شيئا لم يكن ودخلت الحركة القومية في معضلة حقوقية لأن التعاقد الواضح في مرحلة التأسيس تحول إلى **"تعاقد رمزي"** فاقد للصفة الحقوقية. وفي الواقع فإن استشهاد سعاده أعطى لهذا التعاقد الرمزي هالة من الاحترام حتى أن المس به كاد أن يكون محظورا، واستفادت السلطات الحزبية المتعاقبة من ذلك، واستغنت بالرمز وقيمته المعنوية والعملية عن مراجعة هذه الناحية من الدستور بشكل حقوقي سليم، وعندما فعلت بعد سنين عديدة كانت اختلاطات الصراع على السلطة قد استفحلت وتجذرت إلى حد مستعصي.

السؤال المتوجب طرحه اليوم، والذي كان يجب أن يطرح في التاسع من تموز، هو كيف ننتقل من تعاقد التأسيس إلى **"تعاقد المستقبل"**، وهذا السؤال هو من ضمن الأسئلة الكثيرة المتفرعة من السؤال الأساسي كيف نبني حزب المستقبل؟ ولا يمكن تحديد تعاقد المستقبل قبل تحديد شكل الحركة السورية القومية الصالحة لتحقيق الغاية القصوى التي وضعها سعاده أمانة في عقولنا وقلوبنا.

*** الدكتور سليم مجاعص طبيب وكاتب. مقيم في الولايات المتحدة. له العديد من المؤلفات في الشأن القومي وباللغتين العربية والإنكليزية.**

قَسَمُ الزّعامةِ وقَسَمُ العضوية

بقلم الرفيق شحادي الغاوي*

قَسَمُ الزعامة أدّاه سعاده في أول آذار سنة 1935، أي بعد تأسيس الحزب بثلاث سنوات[1]. أمّا قسَم العضوية فلا نعلم متى وُضِع ومَن هو الرفيق الذي أدّاه أولًا ومتى كان ذلك.

قسَم الزعامة موجود في مقدمة الدستور، وقسم العضوية موجود في المادة التاسعة منه. لكن الدستور وُضِع سنة 1934 (وصُنِّف سنة 1937)، ما يعني أن الرفقاء الذين انتموا قبل سنة 1934 لا نعلم إذا كانوا قد أدّوا قسَم العضوية نفسه الذي نعرفه الموجود في الدستور المصنّف سنة 1937.[2]

والفرق بين "وُضِع" و"صُنِّف" هو أن ما وُضِع سنة 1934 قد جرت إعادة ترتيب له وتصنيف فيه سنة 1937 بين ما هي مواد دستورية وما هي مراسيم دستورية، ولا ندري إذا كان ما وُضِع سنة 1934 يتضمّن قسمًا للعضوية أم لا، وإذا كان يتضمن قسم العضوية فلا ندري إذا كان هو نفسه الموجود في دستور 1937.

ما وُضِع سنة 1934 مفقود وغير متوفر اليوم، ولكن هناك إشارة مفيدة تعلِمنا أن مواده كانت 21 مادة على الأقل، بينما مواد الدستور المصنَّف سنة 1937 هي فقط أربع عشرة مادة. الإشارة التي نتكلم عنها موجودة في مرسوم الطوارئ الذي أصدره الزعيم في 20 حزيران سنة 1936 حيث يقول في مطلعه:

"بناءً على المواد الثامنة والتاسعة والحادية والعشرين من الدستور... نرسم ما يلي"

نستنتج من كل ذلك أننا لا زلنا لا نعلم أيهما وُجِد قبل الآخر، قسم الزعامة أم قسم العضوية. ويعني ذلك أيضًا أننا لا زلنا لا نعلم مَن أقسَم أولًا، الزعيم أم الأعضاء، حيث لا نعلم إذا كان الرفقاء الأوائل الذين انتموا قبل أول آذار سنة 1935 قد أدّوا قسمًا أم لا. لا توجد أية إشارة من تراث سعاده المكتوب، أو من مرويات ومذكرات الرفقاء الأوائل، تفيدنا أن أحدًا منهم قد أدّى قسمًا قبل أول آذار 1935.

هذه المعلومات لا بد منها لنفهم جيدًا قول الزعيم في "إحتفال أول آذار" سنة 1949 إن قسمه لم يكن شرطًا لِقسَم القوميين الاجتماعيين، يقول:

لم يكن قسَمي شرطًا لقسَم القوميين الاجتماعيين على الولاء للعقيدة والنظام القوميَين الاجتماعيين وللزعيم، إذ لم يكن لأحد قط شك في حقيقتي وعزيمتي، ولم تؤسَّس القضية السورية القومية الاجتماعية على الشك بل على اليقين.[3]

هذه المقدمة هي للتأكيد على أن مبدأ التعاقد بين سعاده والقوميين الاجتماعيين، الذي تأسس بموجبه الحزب كما هو وارد في مقدمة الدستور، لم يكن تعاقدًا بشروط مثلما تكون العقود التجارية. عندما أقسم القوميون الاجتماعيون لم يقسموا بشروط، ولم يكن قسمهم مشروطًا بقسم الزعيم، بل كان قسمهم يعني تعهدًا والتزامًا يشهد عليه شرفهم وحقيقتهم ومعتقدهم، أي أعمق ما في وجدانهم وأغلى ما في نفوسهم.

في العقود التجارية بين طرفين تكون هناك شروط مادية وتبعات جزائية ينحلّ العقد بين المتعاقدين بمجرّد أن يخلّ أحد الطرفين بشرط واحد منها، أمّا التعاقد مع سعاده فهو تعاقد وجداني رابطه الإيمان والولاء والثقة، وضمانته "شرفي وحقيقتي ومعتقدي"، وهذه هي أغلى ما يملكه الفرد منّا والأكثر مساسًا بصفته كإنسان. لم تكن هناك شروط في التعاقد بين الواحد منّا والزعيم، بل موجبات ومسؤوليات دون مقابل، كانت هناك عطاءات وتضحيات وبذل النفس والحياة من أجل قضية تساوي الوجود من أجلها نقف معًا أو نسقط معًا.

هذا القسَم لم يكن شرطًا في عقد تجاري بيني وبين القوميين الاجتماعيين لأنه لا يوجد بيني وبين القوميين الاجتماعيين عقد تجاري. كان قسمي في صميمه أني وقفت نفسي على هذه الأمة، على أن أسعى لرفعها من حضيض الذل والاستعباد الى حياة العز- الى الرقي والمجد... أقسمت غير شاعر أنني أقدّم منّة لأمتي، أقسمت شاعرًا أني أعطي الأمة ما يخصّها... كل ما فينا هو من الأمة وكل ما فينا هو من الأمة. الدماء التي تجري في عروقنا عينها ليست ملكًا لنا، إنها وديعة الأمة فينا متى طلبتها وجدتها![4]

هذا ما أعلنه زعيمنا قبل استشهاده بأربعة شهور، وهذا ما أطلق تيارًا روحيًا عظيمًا في جسم الأمة السورية وجعل الرفقاء يقتدون بالزعيم ويتسابقون للعطاء والبذل والاستشهاد. لقد برّ زعيمنا بقسمه وطبّق كل

[1] الأعمال الكاملة، ج 8، صفحة 282.

[2] في مذكرة الاستجواب التي صدرت عن الكاتب جمال العازار التابع لمكتب قاضي التحقيق حسن قبلان، وفي جلسة استجوابه للزعيم، أعلن سعاده أن إصدارًا "موجزًا" وضعه للدستور بين أواخر عام 1932 وبداية عام 1933، لكن هذا الموجز مفقود أيضًا.

[3] نفس المصدر.

[4] نفس المصدر.

حرف منه وكان أمثولة رائعة عن خصائص النفس السورية في البطولة والعطاء والتضحية.

إنه زعيمنا ونحن نفخر بالتعاقد معه وحده، ويستمر التعاقد معه في كل قسَم يؤدّيه كل رفيق جديد. وتعاقدنا معه يستمر بعد استشهاده، تمامًا كما كان يحدث قبل استشهاده في حضوره وفي غيابه.

في هذا التعاقد لا نحاسبه ولا نقول له: لماذا غيرت أسم الحزب وأضفت كلمة اجتماعي إليه، ولماذا غيرت في صيغة المبدأ الأساسي السادس وأصبح "الأمة السورية مجتمع واحد" بعد أن كان "الأمة السورية هيئة اجتماعية واحدة"، ولماذا غيرت في صيغة حدود الوطن السوري الشرقية فصارت "جبال البختياري" بعد أن كانت " ضفاف دجلة"، كيف لك الحق بذلك وأنت أقسمت أمامنا بأن تكون "أمينًا على المبادئ التي وضعتها"؟

لا نقول له ذلك لأننا من جهة "نؤمن به معلمًا وهاديًا للأمة والناس"، ومن جهة أخرى هو بقي أمينًا للمبادئ التي وضعها وله الحق والسلطة في التعبير عنها هي ذاتها بصِيَغ مختلفة لشرحها وتوضيح معناها.

لا نقول له كما قال له بعضٌ من رفقائه الأولين: كيف لك وحدك أن تكون مصدرًا للسلطتين التشريعية والتنفيذية، وكيف لك وحدك أن تكون زعيمًا، بينما نحن نحمل شهادات في الفلسفة وأنت لا تحمل شهادات،... فاحترق هؤلاء كما يحترق الذباب عندما يحوم حول المصباح راغبًا في ضوئه المنير غير مدرك أن حرارته حارقة!

إنه زعيمنا ونحن نفخر بالتعاقد معه وحده لأنه:

هدانا الى قوميتنا وجاء يعلمنا الحق والعدل والمناقب السامية والأخلاق الراسخة، هو رسولنا في القومية الاجتماعية، ومحجتُنا في اليقين بها، وقدوتُنا في مكارمها، ومرجعُنا في مسؤولياتنا وفي كل ما أشكل علينا، وحصنُنا ومعتَصَمُنا كلما اشتدت علينا الشدائد.[5]

أمّا المؤسسات الحزبية التي أنشأها الزعيم وقال عن إنشائها أنه كان أعظم أعماله بعد تأسيس القضية القومية الاجتماعية، فوظيفتها قد حددها الزعيم وقال عنها:

هي التي تحفظ وحدة الاتجاه ووحدة العمل وهي الضامن الوحيد لاستمرار السياسة والاستفادة من الاختبارات. وبواسطة مؤسساتنا الحزبية المنظمة تمكنا من القضاء على الفوضى وترقية خططنا وأساليبنا، ولولا مؤسساتنا القوية ونظامها المتين لكانت العوامل الشخصية الأنانية التي برزت في بعض الظروف تمكنت من تسخير جهاد ألوف السوريين والسوريات لمطامعها.[6]

لكن لا يمكن لها أن تحلّ محل الزعيم وتأخذ مكانه طرفًا أول في التعاقد الذي تأسس بموجبه الحزب.

أن استبدال نصّ قسم العضوية الخاص بتأييد سلطة الزعيم في دستور 1937، بتأييد سلطة المؤسسات كما هو معمول به في الدستور المعدَّل الراهن، يمكن أن يعني استبدال التعاقد مع الزعيم بالتعاقد مع المؤسسات. وهذا مما يضرب مقدمة الدستور وفلسفته والأساس الذي تأسس عليه الحزب، ويعني أيضًا السماح للمؤسسات الراهنة أن تعبث بالقضية السورية القومية الاجتماعية وأساساتها كلها متسلحة بتأييد القوميين لها، هذا التأييد المطلق وغير المشروط الذي التزموا به في القسَم الراهن المُعدّل. وهذا قد حدث فعلًا في كثير من الجنوح والانحرافات التي ارتكبها مسؤولون مركزيون على رأس المؤسسات الحزبية وجاراهم فيها القوميون الاجتماعيون لأنهم أقسموا على تأييد المؤسسات وطاعتها. وهذه قضية كان سعاده نبّه الى خطورتها بعد عودته سنة 1947 عندما أعاد شرح معنى النظام وقال إنه "شيء عميق جدًا في الحياة"، وإنه "نظام الفكر والنهج" قبل أن يكون نظام الشكل وما يتطلبه من طاعة للمسؤولين في المؤسسات. يومها قال إن قبول القوميين الاجتماعيين بالانحراف باسم النظام، أي باسم نظام الشكل ومؤسساته، يشكل قضية خطيرة.[7]

إن إدخال مبدأ التعاقد مع سعاده في نصّ القسم أيضًا الى جانب مقدمة الدستور، يحلّ هذا الإشكال ويؤكّد استمرار التعاقد مع سعاده لدى المنتمين الجدد بعد استشهاده، فيصبح القسم متضمنًا عبارة: **"وأن أؤمن بسعاده معلمًا وهاديًا وأتخذه قدوة لي، وأحافظ على تعاقدي المبدئي معه"** بدل عبارة **"وأن أؤيد مؤسساته الدستورية وسلطاتها"**. أمّا مبدأ الطاعة والتأييد الذي هو ضروري في أي نظام، فيبقى موجودًا دون تعديل في العبارة التي تقول **"وأن أحفظ قوانينه ونظاماته وأخضع لها، وأن أحترم قراراته وأطيعها"**. هكذا نكون أبقينا على تعاقدنا مع سعاده، وليس مع المؤسسات، وتكون طاعتنا لسلطة رؤسائنا غير مطلقة بل مقيدة بتعاقدنا مع سعاده وبحفاظ هؤلاء الرؤساء على القضية السورية القومية الاجتماعية التي كانت موضوع تعاقدنا معه.

*** شحادي الغاوي: باحث وكاتب في الشؤون القومية الاجتماعية. له العديد من المؤلفات والأبحاث والمقالات في أكثر من موقع. مقيم حاليًا في أستراليا.**

[5] الأعمال الكاملة، ج 11، صفحة 42

[6] الأعمال الكاملة، ج 3، صفحة 194.

[7] الأعمال الكاملة، ج 8، ص 27.

العقد والتعاقد مع سعاده أعلى مراتب الديموقراطية

بقلم الأمين إيلي عون

وضع سعاده مبادئ قومية تتناول البعث والنهوض والرقي لأمته السورية، ودعا الناس الى اعتناق تلك المبادئ، على قاعدة الحوار الهادئ الآيل الى المعرفة والإيمان الراسخ بها، ثم عقد العزيمة على تحقيق تلك المبادئ بموجب خطة ونظام صريح واضح يحدد واجبات وحقوق وصلاحيات الأفراد المتعاقدين، نسميه الدستور.

والتعاقد هذا له موضوع محدد واضح خال من التعقيدات، بسيط المظهر، عميق الجوهر، الأمر الذي يسهل لأبناء الشعب عامة حصول الفهم والمعنى والقصد. لهذا أتت المبادئ بليغة في إيجازها، قصيرة في تركيبها، ناصعة في مظهرها، ضاربة في العمق لجذورها. فالقول " سورية للسوريين والسوريون أمة تامة" مثلا سهل الإدراك، بعيد عن الالتباس والتورية، قاطع حاسم في التعيين. هو مبدأ يستطيع العامل والفلاح والمواطن العادي عامة تلمس معناه، ودفء مغزاه، ورقي مبتغاه، ولذوي الثقافة العالية أهمية أبعاده وشأو قممه. وعلى منوال هذا المبدأ أتت كل المبادئ غاية في سهولة الطرح ملامسة عقول أبناء الشعب الغارق في الجهل والفوضى والأمراض والعلل، ولمن أوتي العلم قض لمضجع التفكير والعقل من أجل عملية النهوض والبناء والتقدم. فالقول مثلا أيضًا " الأمة السورية مجتمع واحد" يلامس عقل وقلب كافة أبناء الشعب لاعتبار أنفسنا مجتمعا واحدا يقوم على الولاء القومي للأمة وللوطن لا تفرقنا المذاهب والأديان ولا الأثنيات الثقافية ولا تستهوينا منزلقات " التحدر العرقي " وأراجيزه المضللة. وما أوردناه عن المبادئ الأساسية ينطبق أيضًا على المبادئ الإصلاحية. فالقول " فصل الدين عن الدولة" أو " إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب " هو أيضًا من الوضوح ما يسهل الإدراك ويزيل أي ارتباك أو شك في المقاصد القريبة والبعيدة لمرامي تلك المبادئ. لماذا نسوق هذه الأمثلة؟ نقول هذا لأن موضوع التعاقد وغرضه أو غايته يصبح اقوى وأمتن، ويصعب على أبناء الظلمة تضليل المؤمنين به. لهذا يصبح من الصعب جدا على أي منكم أن يقول " لم أكن أعرف ذلك" أو أن موضوع التعاقد كان صعبا أو غامضا. لذا فالتعاقد بني على موضوع واضح جلي خال من المواد والأغراض المعقدة. جمال وعظمة التعاقد مع سعاده هو في وضوح الهدف وفي سمو معناه. فمن يستطيع أن يرفض القول: "سورية الوطن لسورية الأمة"، أو يرفض القول "مصلحة سورية فوق كل مصلحة"، أو يرفض "إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب"، أو يرفض الدعوة لـ "إعداد جيش قوي يكون ذا قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن"؟ إذا المبادئ التي وضعها سعاده تجعل طبيعة التعاقد طبيعة مصيرية حياتية شاملة ومحاولة التنصل من التعاقد هي تنصل من الواجب القومي أو الوطني وخال من أي مسوغ أخلاقي أو وجداني. هذا التعاقد، بماهيته، يسقط أي ادعاء بديكتاتورية سعاده كزعيم وكمصدر للسلطات. فالاختيار القائم على الاطلاع والمعرفة والاستعداد لحمل أعباء النهضة وما يترتب على ذلك من تضحيات ومعاناة –هذا الاختيار هو أعلى مراتب الديمقراطية وأسمى معانيها. فسلطة الزعامة عند سعاده قائمة أو منبثقة من قبول الطرف الثاني المقبلين على الدعوة قبولا واعيا حرا عارفا مدركا، هي زعامة نابعة من تلك الإرادة ولم تفرض من فوق ولم تأت بالإسقاط أو بعامل الوراثة أو بسلطة الإقطاع الطائفي أو العشائري أو بسلطة الأمر الواقع. سلطة الزعامة هي سلطة دستورية مقيدة بالدستور وخاضعة لقوانينه ومواده. لم يضع سعاده أية مواد دستورية إلا استنادا الى مواد دستورية كأن يقول: إن زعيم الحزب.....بناء على المواد الدستورية كذا وكذا يرسم ما يلي...الخ. وسعاده لم يشأ إلا أن يقيد نفسه بأحكام الدستور، المتضمن مبادئ الحزب وغايته، فأدى قسما يحدد حدود صلاحياته ويضبطها بحدود غاية الحزب. في المغترب القسري تعرض سعاده لنوازع بعض القومين في مسألة زعامته فقال "وإذا كان أحد يعد نفسه أكفأ من الزعيم لتسيير سياسة الحزب والقيام بأعباء سلطته، لاعتقاده أن الزعيم، ما أخذ الزعامة إلا صدفة إذ لم يكن الأكفأ منه موجودين حين تقرير مسألة الزعامة ولمن يجب إسنادها فهذه المسألة يمكن أن تعرض على مجالس الحزب للنظر فيها من أساسها لكي تجري الأمور بصورة قانونية وضمن النظام. وهذا أفضل كثيرا لمستقبل الدولة القومية من كسر النظام بتجاهل وجود السلطة أو بعدم اعتبار هذه السلطة التي هي سلطة حقيقية كما يجب أن تكون ". (آ.ك.ج.أ.ص.286)

في النص السابق يعتبر سعاده أن زعامته وسلطاتها " يمكن أن تعرض على مجالس الحزب للنظر فيها...وهذا أفضل كثيرا لمستقبل الدولة القومية من كسر النظام...". هذا ليس فقط أعلى مراتب الديمقراطية بل أرقاها إطلاقا .

أما وقد بينا أن الديمقراطية هي في صلب الدستور القومي وهي في صلب التعاقد بين الشارع صاحب الدعوة(سعاده) وبين المقبلين عليها فهنا لا بد أن نقول إن الديمقراطية التي نقول بها ونتخذها معيارا للمسؤوليات الإدارية في الحزب، وفي الدولة القومية لاحقا، هي الديمقراطية التعبيرية، عملا بقول سعاده " سورية القومية تضع أمام العالم فكرة التعبير عن الإرادة العامة بدلا من فكرة " تمثيل الإرادة العامة " التي لم تعد تصلح للأعمال الأساسية لحياة جديدة "، ويتابع ليقول " إن الديمقراطية الحاضرة قد استغنت بالشكل عن الأساس وتحولت الى نوع من الفوضى لدرجة أن الشعب ذاته أخذ يئن من شلل الأشكال التي أخذت على نفسها (تمثيل) الإرادة العامة، وصار ينتظر انقلابا جديدا وهذا الانقلاب الجديد هو ما تجيء به الفلسفة السورية القومية الاجتماعية القائلة بالعودة الى الأساس والتعويل على التعبير عن الإرادة العامة ". من هنا نستطيع الدخول الى موضوع عشرات التعديلات الدستورية في فترات وجيزة قياسا، على سبيل المثال، الدستور الأميركي الذي عدل 22 مرة في فترة مائتي عام، ما يدل أننا كنا وما زلنا في حالة ارتباك في الرؤية والإدراك. تلك التعديلات أظهرت نزوعا شديدا لاستبدال الديمقراطية التعبيرية بالديمقراطية التمثيلية و" استغنت بالشكل " عن الجوهر والأساس وقد تمثل ذلك في مؤتمر ملكارت وكل المؤتمرات التي جاءت بعده. التعديلات الدستورية كان يمهد لها بالتصويت في المجلس القومي المؤلف من مئات من الأعضاء الذين لا خلفية قانونية- دستورية أو خلفية إدارية لهم. كل ذلك يتم في غضون ساعات قليلات فيتقرر مصير حزب، بدستوره وإدارته، بهمروجة انتخابية شبيهة بالحكم الشعبي المباشر في الجماهيرية الليبية سابقا. كل التعديلات الدستورية لم تلحظ إنشاء سلطة ناظمة ضابطة فاصلة مسؤولة عن فض الخلافات الناشئة داخل السلطة الواحدة أو بين سلطتين، بل أسندت للمجلس الأعلى تلك الصلاحية الذي أمسى " فيك الخصام وأنت الخصم والحكم ". فكلما تعرض الحزب الى أزمة إدارية نراها انتهت بانشقاق معيب. لذلك آن الأوان لوجوب وضع حد لهذه الفوضى والقيام بخطة إصلاح دستوري وإداري تقوم على الشكل التالي:

1. تتشكل هيئة من خمس الى سبع أعضاء من ذوي الاختصاص القانوني وأصحاب الدراسات القانونية فضلا عن نضالهم الحزبي المعروف. مهمة هؤلاء هي إعادة النظر في كافة التعديلات الدستورية / انبثاق السلطات/ فصل السلطات / النظام الانتخابي/المجلس القومي / رتبة الأمانة وموضوع الرتب/ المحكمة الحزبية/وكل ما يجدونه جديرا للاعتبار.
2. مدة عمل هذه الهيئة هو ستة شهور، بعدها تقوم بتعميم وشرح ما وصلت إليه من اقتراحات للصف الحزبي في مدة أدناها ثلاثة شهور وأقصاها ستة شهور حيث يمكن للقوميين أن يطرحوا آراءهم وأسئلتهم وتوصياتهم وما يرونه مناسبا.
3. تعود الهيئة تعاود عملها لتاتي بالنسخة النهائية حيث يتم اعتمادها بواسطة استفتاء حزبي عام أو بواسطة المجلس الأعلى أو بأي طريقة أخرى تقترحها الهيئة نفسها.

علاقة قَسَمِ العضوية بقَسَمِ الزعامة والاقتداء بالزعيم

بقلم الأمين الدكتور أسامة سمعان*

تأسس الحزب السوري القومي الاجتماعي بموجب تعاقد بين الشارع صاحب الدعوة إلى القومية السورية الاجتماعية، وبين المقبلين على الدعوة، على أن يكون واضع أسس النهضة السورية القومية الاجتماعية زعيم الحزب مدى حياته، وعلى أن يكون معتنقو دعوته ومبادئه أعضاء في الحزب يدافعون عن قضيته ويؤيدون الزعيم تأييدًا مطلقًا في كل تشريعاته وإدارته الدستورية. وقد تجسد ذلك في قسم الزعامة.

فزعامة سعاده مدى الحياة كانت، لأن سعاده وحده هو من أسس الحزب وكان يمثل جميع السلطات الحزبية من تشريعية وتنفيذية. فهو الزعيم، والزعيم هو الكفيل الذي يستطيع أن يفعل ما لا يستطيع غيره فعله.

يخبرنا رفقاء الرعيل الأول أن عددا منهم توجه إلى "الكوخ" حيث يقيم سعاده، حاملين باقة ورد لتهنئته بعيد ميلاده، فما كان منه إلا أن أدلى أمامهم بقسم الزعامة الذي يحدد جانبًا من العلاقة التعاقدية بين صاحب الدعوة من جهة والأفراد المقبلين على الدعوة من جهة أخرى. وقد جاء قسم الزعامة على النحو التالي : **"أنا أنطون سعاده، أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أني أقف نفسي على أمتي السورية ووطني سورية، عاملًا لحياتهما ورقيهما، على أن أكون أمينًا للمبادئ التي وضعتها وأصبحت تكوّن قضية الحزب السوري القومي الاجتماعي ولغاية الحزب وأهدافه، وأن أتولى زعامة الحزب السوري القومي الاجتماعي وأستعمل سلطة الزعامة وقوتها وصلاحياتها في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيته وأن لا أستعمل سلطة الزعامة إلاّ من أجل القضية القومية الاجتماعية ومصلحة الأمة"** وتأسيسا على الزعامة كان قسم العضوية الذي نص في متنه على تأييد الزعيم وسلطته.

لم تغير جميع التعديلات الدستورية التي حصلت تباعا من قسم الزعامة بل أن الدستور الصادر في عام 2010 وضع قسم الزعامة في مقدمة الدستور.

قسم العضوية الحالي:

جاء في قسم العضوية ما يلي: **أنا..... أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أني أنتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي بكل إخلاص وكل عزيمة صادقة، وأن أتخذ مبادئه القومية الاجتماعية إيمانا لي ولعائلتي، وشعارًا لبيتي، وأن أحتفظ بأسراره فلا أبوح بها لا بالقول ولا بالكتابة ولا بالرسم ولا بالحفر ولا بأي طريقة أو وسيلة أخرى. لا تطوعًا ولا تحت أي نوع من أنواع الضغط، وأن أحفظ قوانينه وأنظمته وأخضع لها، وأن أحترم قراراته وأطيعها، وأن أنفذ جميع ما يعهد به إلى بكل أمانة ودقة، وأن أسهر على مصلحته مؤسساته الدستورية وسلطاتها، وأن لا أخون الحزب ولا أي فرع من فروعه ولا أفراده ولا واحدًا منهم، وأن أقدم كل مساعدة أتمكن منها إلى أي عضو عامل من أعضاء الحزب متى كان محتاجًا إليها وأن أفعل واجباتي نحو الحزب بالضبط مقتديًا بمنشئه الزعيم، على كل هذا أقسم أنا.....**

أما عن علاقة قسم الزعامة بقسم العضوية فهي علاقة وطيدة، حيث أن قسم العضوية، منذ استشهاد الزعيم ولغاية اليوم، ينص على تأييد الزعيم وسلطته والاقتداء به، ما عدا مرة واحدة في تعديل 23 نيسان 1970 نص على سلطات الحزب الدستورية بدلًا من سلطة الزعيم. إذ سرعان ما أعيد العمل بالاقتداء بالزعم وتأييده بعد أشهر قليلة من العام نفسه وتحديدا في تعديل 6 تموز 1970.

في الأربعينات، ثبّت سعاده منطقة ما بين النهرين ضمن حدود الأمة السورية التي تصل إلى جبال البختياري، إلى الجبال التي تعين الحدود الطبيعية بين سورية وإيران، فاحتج بعض القوميين مدعيين أن هذا التعديل يطيح بقسم العضوية، ولكن الزعيم واجههم بالحجة المرتكزة إلى قسم الزعامة المقيدة بالقسم الذي تضمن تحقيق قضية الحزب بعد الزعيم حيث حلت المؤسسات التنفيذية، والتشريعية ومؤسسة المؤتمر العام، هذه المؤسسات تمتلك خلاصة التعامل السليم مع احتمالات وقوع خروقات في التعاقد.

لا يستطيع مجلس العمد، ولا المجلس الأعلى، منفردين ومجتمعين أن يحل محل مؤسسة الزعامة، واني أميل إلى القول بأن مؤسسة المؤتمر

العام التي تمثل مجموع القوميين الاجتماعيين، في حال أصبحت توصياتها ملزمة هي الوحيدة التي تمثل طرف التعاقد المتمثل بالزعامة

ماذا تعني عبارة مقتديًا بمنشئه الزعيم الواردة قي قسم العضوية؟

فالاقتداء بالزعيم تدفع أعضاء الحزب إلى الإنتاج الفكري المستمر، وممارسة البطولة، والثبات في المواقف الصحيحة مهما كانت صعبة

1. الإنتاج الفكري

لقد ترك سعاده إرثًا فكريًا عظيمًا، تمثل في مؤلفاته نشوء الأمم، والإسلام في رسالتيه، والصراع الفكري في الأدب السوري والمحاضرات العشر وعدد كبير من المقالات جمعت ونشرت تحت عنوان الأثار الكاملة.

الاقتداء بسعاده تدفع مفكري الحزب على الإنتاج الفكري في جميع الميادين العلمية، ومواكبة التطورات على كافة الصعد، السياسية، والاجتماعية وغيرها ومواجهة الغزو الفكري الخارجي الذي يعمل على إضعاف الأمة، وتجزئتها سياسيًا طائفيًا.

بمعنى آخر مواجهة جميع العوامل التي تؤخر الأمة، وتمنع وحدتها السياسية، وعلى رأس ذلك مواجهة الأفعال الاستعمارية والصهيونية، التي شغلت الأمة بالحروب المتعددة، سواء على جبهة فلسطين، أو في الداخل، وفي مواجهة الفكر التكفيري الذي تم الانتصار عليه مؤخرًا.

الإنتاج الفكري يجب أن يتابع التطورات ولا يستقر على حال من الجمود، ليس أدل على ذلك من سعي سعاده نفسه إلى تعديل حدود الأمة السورية من ناحية جبال البختياري وإظهار الحدود الطبيعية بين الوطن السوري وإيران.

إن الخطر الذي تمثله الصهيونية في فلسطين ليس خطرًا على الأمة السورية وحسب، بل هي خطر على العالم العربي بأسره، وما حرب 1967 ضد مصر واحتلال سيناء إلا دليلًا واضحًا على صحة نظر سعاده في خطر الصهيونية على العرب أجمعين.

2. المواقف البطولية

رأى القوميون في زعيمهم سعاده قدوة في البطولة المؤمنة بصحة العقيدة، في مواجهة التحالف الرجعي في الوطن السوري مدعمًا بالرجعية العربية المتمثلة بالنظام الملكي المصري. عام 1949، وبالرغم من إدراكه لحجم الخلل في ميزان القوى بينه وبين الرجعية، أعلن ثورة 1949 في وجه النظام اللبناني ودفع حياته ببطولة نادرة، تمثلت في مواجهة الرجعية والمذهبية والعمالة للأجنبي.

على نهج سعاده وقدوته مارس القوميون الاجتماعيون البطولة في مواجهة الغزو الصهيوني للبنان عام 1982 ومواجهة الغزو التكفيري لكيانات الأمة السورية في ما سُمّي بالربيع العربي بعد 2011.

لقد واجه القوميون الاجتماعيون الهجمة التكفيرية في لبنان والشام، إلى جانب القوى الوطنية الأخرى انتصروا عليها بعد أن ردوا المعتدين على أعقابهم خاسرين.

3. التمسك بخيار المؤسسات

لقد واجه حزبنا أصحاب النفسيات الفردية التي تورطت في الماضي في جريمة المالكي عام 1956 وجرّت على الحزب الكثير من المآسي، انتهت بانقسام القوميين منذ ذلك الحين، فشهد تاريخ المرحلة على عدم فاعلية أصحاب النفسيات الانقسامية داخل الحزب، بالرغم من استمرارهم الشكلي، مشكلين مجموعة من المضللين الذي تمسكوا بالأشخاص وليس بالمبادئ التي وضعها سعاده العظيم

اليوم إذ نشهد انقسامًا جديدًا على أثر فشل أصحاب الأنانية في الانتخابات الحزبية، بالرغم من أنهم هم من دعا إلى الانتخابات الحزبية، وهم من نظمها وراقبها، وعندما أسفرت النتيجة عن هزيمتها، انقسمت وراحت بعيدة منزوية لا فعل لها ولا حول. واستمرت المؤسسات الحزبية في عملها.

لطالما حذرنا سعاده من مخاطر الأنانية والانتهازية والوصولية، فنحن في توجهاته ملتزمون، وقد استطاعت توجهاته من إقصاء الانتهازية من صفوف النهضة إلى زمن يغتسلوا فيها من أدرانها القاتلة لوحدة الروح.

أجل، لقد انتصرت مفاهيم قسم العضوية بالقوميين الاجتماعيين الثابتين على المبادئ، بالتضحيات التي قدموها في مواجه الرجعية الداخلية، وفي مواجهة العدو الصهيوني وتعدياته على أرضنا القومية في لبنان والشام وفلسطين. مقتدين بزعيمهم الخالد، في نهجه العلمي، والثبات على المواقف الصحيحة، والتمسك بالمؤسسات الدستورية خيارًا لا بديل عنه.

*** الأمين الدكتور أسامة سمعان كاتب ومحلل. له العديد من المؤلفات في الفكر القومي الاجتماعي. آخر مؤلفاته: "المدرحية فلسفة النظام الجديد".**

تسلّم خلال مسيرته الحزبية العديد من المسؤوليات المركزية.

"تعاقد" سعاده و"نازيّة" الفوهرر

بقلم الرفيق الدكتور عادل بشارة

لقد كان مفهوم التعاقد، وما زال، من أكثر الجوانب المعقدة في دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي. قد يعزى ذلك إلى أن هذا الحزب هو الحزب السياسي الأول، وربما الوحيد، الذي تأسس على تعاقد بين صاحب الدعوة والمقبلين عليها. عادةً تتقيد الأحزاب الأيديولوجية في العالم، على جانبي الطيف السياسي، بدستور داخلي وقواعد سلوك ولكن ليس بموجب عقدٍ من أي نوع.

بصفته رائدًا لأيديولوجية جديدة، ابتكر سعاده فكرة التعاقد، من بين أمور أخرى، لمنع المخربين المحتملين، من داخل الحزب وخارجه، من العبث بمبادئها الأساسية أو من إخضاع تعاليمها للمنفعة السياسية والشخصية. وعليه، فإن "التعاقد" هو بمثابة صمام أمان ضد إمكان العبث بأيديولوجية الحزب لأنه يحصر موضوع التعاقد - القضية السورية القومية الاجتماعية – بصاحب الدعوة وبالوقت نفسه يلزم صاحب الدعوة بموضوع التعاقد.

لكن منتقدي سعاده، في الماضي والحاضر، فشلوا في فهم المعنى الحقيقي لفكرة التعاقد، أو أساءوا فهم الغرض منها. ولقد كان بعضهم قاسيًا في تقييمه للفكرة حتى إنه ذهب إلى أقصى الحدود بوصفها أنها فكرة مستوحاة من النازية، مدعيًا أن سعاده ربط الحزب بشخصه بموجب عقد لأنه أراد أن يكون هتلرَ آخر - زعيمًا يتمتع بسلطات مطلقة وبلا منازع له في الحزب. بطبيعة الحال، من السهل ادعاء هذا، خاصة أن بعض العناصر توحي بوجود نزعة نحو السلطوية والاستبداد، لكن هل يصمد هذا الادعاء أمام حقائق الأمور؟ وهل سعى سعاده حقًا لأن يكون هتلر آخر؟ الإجابة عن هذه الأسئلة ممكنةٌ بمقارنة بسيطة بين سلطة هتلر وسلطة سعاده.

بادئ ذي بدء، لم تكن علاقة هتلر بحزبه مبنية على عقد من أي شكل أو نوع كما هو الحال مع سعاده. والسبب يعود، بالدرجة الأولى، إلى حقيقة أن هتلر لم يكن مؤسس الحزب النازي أو "حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني" ولا حتى المنظر الأساسي له. مؤسسا الحزب النازي، المنبثق أصلًا عن "حزب العمل الألماني" في ميونخ، هما آنتون دريكسلر والصحافي كارل هارير، وذلك في عام 1919. أما المنظر الأساسي للحزب فكان غوتفريد فيدر الذي كتب برنامج الحزب ونادى بعقيدة، لها صبغة قومية قوية وطابع اشتراكي، تدعو إلى ملكية الدولة للأرض وتأميم البنوك. وطبقًا للأرشيف النازي، كان هتلر العضو 555 عندما انضم إلى الحزب عام 1921، ما يعني أنه لم يكن صاحبَ العقيدة النازية أو الداعي الأول لها. وحتى بعد أن بسط سيطرته على الحزب، لم يرتقِ هتلر إلى مرتبة "المنظر" بل أسنِدت المهمة إلى يوزف غوبلز الذي أصبح فيما بعد وزير الدعاية في ألمانيا النازية، من عام 1933 إلى عام 1945. على عكس كل هذا، كان سعاده مؤسسَ الحزب والمنظر الأساسي والوحيد له. والأهم من ذلك، أنه كان الصاحب لدعوة جديدة وأصلية لم يكن لها وجود فعلي أو نظري من قبل. فكان التعاقد لكي يحافظ على أصالة الدعوة إلى حين أن يتم توضيحها وشرح تعاليمها منعًا للتلاعب بها أو تشويهها.

ثانيًا، اعتقد هتلر، كما هو الحال مع جميع الطغاة، أن كلمة الفوهرر (أي كلمته) هي القانون بحد ذاته. عندما يغير رأيه، تتغير السياسة العامة ورؤية الحزب وفقًا لأهوائه. في هذه الحالة، لا توجد أرضية لتعاقد أو عقد جماعي لأن الرؤية، عدا أنها ليست من ابتكار هتلر، هي رؤية غير مستقرة ومرهونة للميول السياسية. في عشرينيات القرن الماضي، وصف هتلر، لأحد خصومه داخل الحزب النازي، العلاقةَ التي كان يتوقعها مع أعضاء الحزب: "بالنسبة إلينا الفكرة هي الفوهرر، وكل عضو في الحزب عليه فقط أن يطيع الفوهرر". وفي الثلاثينيات، حاول النازيون إقامة العلاقة نفسها بين الفوهرر

والشـــعب الألماني، أي علاقة التابع بالمتبوع. في المقابل، فإن "الفكرة" المركزية في التعاقد ليســـت ســـعاده بحد ذاتـه، بل الرسالة/القضية التي تشكّل الرابط الأساس ما بين سعاده وأعضاء الحزب. وهذا يعني أن التعاقد ليس مطلقًا، كما افترض البعض خطأ، بل إنه مشروط بموضوع التعاقد الذي هو القضية السورية القومية الاجتماعية.

ثالثًا، تأسّس الحزب السوري القومي الاجتماعي على مبدأ التعاقد بين ســـعاده والمقبلين على دعوتـه، على أن يكون زعيم الحزب مدى حياته، وقد أدى أمام ثلة من القوميين، في كوخه في الشـــوير، ســـنة 1935 قسم الزعامة الذي نصّ على أن يقف سعاده نفسَه على أمته ووطنه سورية وأن يتولى زعامة الحزب ويستعمل سلطة الزعامة وقوتها وصلاحياتها فقط في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيته. هذا القسم هو شرط آخر لمشروعية التعاقد لأنه يحدد بكل وضوح ودقة موضـــوع التعاقد والمهمة المنوطة بســـعاده. في المقابل، لم نجد هذه القيمة الأدبية في تصـــور هتلر للعلاقة بينه وبين أعضـــاء حزبه ولا نجده يؤدي قســـمًا يلزمه بغاية الحزب النازي، بل إن هتلر تصـــرّف على أساس أنه هو الغاية وبالتالي، فإن الحزب هو الطرف الذي عليه أن يؤدي قسم الولاء له.

إن الفرق بين ســـلطة هتلر وســـلطة ســـعاده تكمن في مصـــطلحين متناقضـــين تم إغفالهما أو التغاضـــي عنهما: الأول هو مصـــطلح "التعاقد" الذي يُلزم أعضاء الحزب بصاحب الدعوة (سعاده) وبدوره يُلزم الأخير بفحوى التعـاقـد. والثـاني هو مصـــطلح الفوهرر (Führerprinzip) الـذي يعني أن "كلمـة الفوهرر هي فوق كـل قانون مكتوب". وهذا الإهمال للمصـــطلحين إن دل على شـــيء فهو يدل على خطورة الاســـتناد إلى الملامح الظاهرية بدلًا من الجوهر والموضوعية في تحليل الأمور.

قراءة في مفهوم التعاقد عند سعاده

بقلم الأمين زهير فيّاض

التعاقد أساس العضوية في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وهو أساس حقوقي ودستوري وأخلاقي جديد أوجده سعاده وأرسى فيه معادلة الوعي والحرية وربطها بالانتماء الى الحركة السورية القومية الاجتماعية.

وهذا المبدأ، أي مبدأ التعاقد، لا لبس فيه، ولا اجتهادات في كونه أساسًا في بناء الحزب العقائدي أولًا، الدستوري ثانيًا، المؤسساتي ثالثًا، والأخلاقي رابعًا. وفي مقدمة الدستور نص واضح جاء فيه أنه، أي الحزب، «**تأسس بموجب تعاقد بين الشارع صاحب الدعوة الى القومية السورية الاجتماعية وبين المقبلين على الدعوة، على أن يكون واضع أسس النهضة السورية القومية الاجتماعية زعيم الحزب مدى حياته، وعلى أن يكون معتنقو دعوته ومبادئه أعضاء في الحزب يدافعون عن قضيته ويؤيدون الزعيم تأييدًا مطلقًا في كل تشريعاته وإداراته الدستورية، ولهذا أدى زعيم الحزب القسم التالي: "أنا أنطون سعاده أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أني أقف نفسي على أمتي السورية ووطني سورية، عاملًا لحياتهما ورقيهما، وعلى أن أكون أمينًا للمبادئ التي وضعتها وأصبحت تكون قضية الحزب السوري القومي الاجتماعي، ولغاية الحزب وأهدافه، وأن أتولى زعامة الحزب السوري القومي الاجتماعي وأستعمل سلطة الزعامة وقوتها وصلاحياتها في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيته وأن لا أستعمل سلطة الزعامة إلا من أجل القضية القومية الاجتماعية ومصلحة الأمة، على كل هذا أقسم أنا أنطون سعاده"**».

هذا هو اذًا الطرف الأول في معادلة "التعاقد" أي الزعيم، أما الطرف الأخر فهو كل مقبل على هذه الدعوة (أي عضو الحزب) وهو يؤدي القسم (قسم العضوية).

إن الأساس التعاقدي الذي أرساه سعاده وثبته في دستور الحزب له مدلولات عميقة على الاتجاه الفكري الجديد الذي أوجده سعاده.

المدلول الأول: يتمثل في مقاربة مسألة الوعي والحرية وعلاقتهما بالفعل النهضوي، أي أن المعادلة تقوم على انتماء يتوفر فيه شرطان: الشرط الأول هو الوعي والشرط الثاني هو الحرية، وهذه المعادلة هي معادلة الفعل النهضوي الثوري (الثورة بمعناها الإيجابي أي دك الأوضاع التقليدية القائمة وبناء قواعد بناء لحياة جديدة) أي الفعل التغييري لتحقيق نهضة الأمة.

هذا المدلول الجديد اذًا يرسي مفهوم الانتماء الى الحزب على قاعدة الوعي والمعرفة بالأهداف والغايات، وهذا ينسجم كليًا مع طبيعة الحزب النهضوية ودوره الريادي في إرساء معالم جديدة للهوية القومية الاجتماعية ببعدها الإنساني الكامل.

المدلول الثاني: الأساس الإرادي الحر القائم على الوعي بخطورة القضية القومية التي يتنكبها الحزب ودور عضو الحزب في التنكب لموجبات الصراع انتصارًا لقضية الحزب والأمة. وهذا الأساس الإرادي الحر في عملية التعاقد يتصل اتصالًا وثيقًا بانبثاق السلطة التي أعادها سعاده الى القوميين الاجتماعيين أنفسهم، إذ أن تكوين السلطة منذ بدايات انطلاقة الحركة السورية القومية الاجتماعية مع المؤسس كان تكوينًا إراديا حرًا يعبّر عن حقيقة أساسية مفادها "**أن القوميين الاجتماعيين هم مصدر انبثاق السلطة**"، حيث إنه حتى سلطة الزعامة مع كل صلاحياتها الضرورية في المراحل الأولى لانطلاق الحزب تستند الى شرعية حزبية داخلية جسدها هذا التعاقد الراقي بين سعاده باعتباره مؤسس الحزب وزعيمه مدى الحياة وبين المقبلين على الدعوة أي أعضاء الحزب بكل درجات مسؤولياتهم في المؤسسة الحزبية.

وهذا التعاقد هو الذي أعطى للزعامة مفهومها المؤسساتي المنبثق من قسم الزعامة وموجباته ومن إرادة القوميين الاجتماعيين الذين أقسموا قسم العضوية في تعاقد حر مع مؤسس الحركة ومطلق دعوتها الى القومية الاجتماعية.

المدلول الثالث: أن الأساس الفكري لمفهوم التعاقد عند سعاده يعطي مضامين واتجاهات لكل أطروحة أنطون سعاده حول التعبير عن الإرادة العامة ومفهوم الديمقراطية وإشكالياتها سواء في الحزب أو المجتمع.

إن مفهوم التعاقد عند سعاده هو الأساس الذي ارتكزت عليه العملية الأولى لـ"انبثاق السلطة وتشكل المؤسسات"، وهو يشكل الأساس في إرساء مفهوم جديد للعضوية بما تتضمنه من حقوق وواجبات، وبما يحدد دورها ووظيفتها في البنى الحزبية المؤسساتية.

إذ أن العلاقة التعاقدية التي أرساها سعاده نفسه، هي التي أعطت لمؤسسة الزعامة شرعيتها الدستورية برضى طرفي التعاقد، وهذا أعطى مفهوم الزعامة بعدًا مؤسساتيًا يدل على أهمية الفكر المؤسساتي ودوره في تفعيل النهضة حاضرًا ومستقبلًا.

الإشكالية المطروحة هي في ارتباط مؤسسة الزعامة بصلاحيات تشريعية وتنفيذية، وقد تمركزت فيها كل السلطات على الأساس التعاقدي نفسه الذي أوجده سعاده، حيث أن الصلاحيات المعطاة لمؤسسة الزعامة تولاها الزعيم خلال حياته، والزعامة –بهذا المعنى- هي حصرًا امتياز لصاحب الدعوة أي سعاده نفسه، لذا تتمثل الإشكالية في الجهة المخولة ممارسة هذه الصلاحيات بعد استشهاد الزعيم؟

الإجابة على هذه الإشكالية معقدة ومتشعبة ولكن مقاربتها على ضوء العقل الذي اعتبره سعاده شرعًا أعلى في المجتمع توصلنا الى طرح خلاصات وحل الإشكالية في سياق الفهم العميق لفكرة الحزب وغايته ودور المؤسسات الحزبية التي تشكل الإطار البنيوي الدستوري وأداة الفعل النضالي النهضوي في سياق تحقيق غاية الحزب أي النهضة بمفهومها الشامل.

المدخل لفهم الإشكالية هي في تحديد مضامينها، وهنا يمكن التمييز بين مضمونين.

المضمون الأول يتعلق بموضوع التعاقد وهو يتمثل في العقيدة والمبادئ السورية القومية الاجتماعية، وهذا المضمون ثابت وهو أساس المعادلة التعاقدية، وهذا المضمون يشكل المحور الأساسي وجوهر قسم الزعامة وجوهر قسم العضوية.

أما المضمون الثاني للإشكالية يتعلق بأطراف التعاقد حيث الصلاحيات والمسؤوليات والقرارات.

لذا الإشكالية تتمثل في كيفية نقل الصلاحيات وبالتالي ممارستها بعد استشهاد الزعيم أي نقلها من مؤسسة الزعامة الى المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية المتفرعة أصلًا من المؤسسة الأم الجامعة أي مؤسسة الزعامة.

لذا ركزت التعديلات الدستورية المتصلة بهذه النقطة بالذات، على أن المؤسسات الدستورية تشكل الاستمرار لسلطة الزعامة في ممارسة الصلاحيات المنوطة بها طبقًا لمواد الدستور وحسب اختصاص كل منها.

وقد طالت التعديلات الدستورية - بهذا المعنى - نص قسم العضوية ليس على موضوع التعاقد أي العقيدة والمبادئ، إذ أنها من الثوابت التي تشكل الأساس للانتماء الى الحزب، "... أن أتخذ مبادئه القومية الاجتماعية إيمانا لي ولعائلتي وشعارًا لبيتي...."، بل طالت الجانب المتعلق بالمؤسسات الدستورية المنوط بها إدارة الحزب وإصدار القرارات وممارسة المهام والصلاحيات وطالت سلطاتها ومفاعيل هذه السلطات وعلاقتها بمفهوم العضوية في الحزب.

لا يمكن فصل مسألة التعاقد في الحزب عن مفهوم السلطة وممارستها لدى سعاده، وعن علاقة السلطة بالإرادة العامة التي تجسّدها، فالأساس التعاقدي هو المدخل لفهم قضية الحرية عند سعاده وربطها بنظرية الحقوق والواجبات إذ أن الانتماء الإرادي الى الحزب على قاعدة الوعي هو الأساس الذي تقوم عليه مشروعية العضوية بكل ما تحمله من حقوق وواجبات تجاه الحزب.

وبما أن الحزب هو حركة الشعب العامة حسب سعاده، فالحزب يمثل نموذج الدولة القومية الاجتماعية الموعودة، وهذه مقاربة ثلاثية الأبعاد لمفهوم الدولة والمرتكزات التي تقوم عليها بحسب سعاده.

وهذا مدخل لفهم فكر سعاده المتصل بقضايا الدولة والحرية والمجتمع والديمقراطية وقضايا التعبير عن الإرادة الشعبية العامة وآلياتها وأشكالها المختلفة والمتعددة.

حسب سعاده، الدولة الديمقراطية هي دولة قومية حتمًا، فهي لا تقوم على معتقدات خارقة، أو إرادة وهمية، بل على إرادة عامة ناتجة عن الشعور بالاشتراك في حياة اجتماعية اقتصادية واحدة. الدولة أصبحت تمثل هذه الإرادة، فتمثيل الشعب هو مبدأ ديمقراطي قومي لم تعرفه الدول السابقة. الدولة الديمقراطية لم تمثل التاريخ الماضي، ولا التقاليد العتيقة، ولا مشيئة الله، بل مصلحة الشعب" (أنطون سعادة، الأعمال الكاملة، الجزء الثالث: نشوء الأمم، صفحة 111، العام 1938).

وفي هذا السياق، يتقدم عند سعاده مفهوم جديد للديمقراطية التعبيرية بما يشكل أساسًا لفهم علاقة الحزب بما هو خارج الحزب، أي علاقته بالأمة والمجتمع، فالحزب في ظروف غياب الوعي القومي الصحيح وضياع الهوية، وغياب الاستقلال الحقيقي يعبر عن مصالح الأمة وعن توقها وسعيها لتحقيق نهضتها، ولو اعتمدنا الديمقراطية التمثيلية في ظروف انحطاط الأمة وواقعها السياسي الاجتماعي لكانت عكست واقع الأمة في انقساماتها وتجزئتها وضعفها وتشتتها.

أما في النهضة، أي داخل الحزب-النموذج حيث الوعي القومي وبناء الإنسان الجديد فالمسألة مختلفة تمامًا، إذ أن إنسان النهضة هو إنسان الوعي القومي الاجتماعي الصحيح، هو الإنسان الجديد المتحرر من كل أمراض المجتمع القديم، هو المواطن الحر الذي يمتلك الوعي القومي الصحيح، وبالتالي داخل الحزب حيث الوعي تتماهى الديمقراطية التعبيرية مع الديمقراطية التمثيلية أي أن الآليات الانتخابية تتحول آليات للتعبير وتمثيل هذه الحالة التعبيرية من خلال الانتخاب، وهذا ما ثبته الزعيم بشكل صريح وواضح في المادة الثالثة من القانون الدستوري رقم 4 لعام 1937 وتعديلاته (مؤسسة لجان

المديريات ومجالس المنفذيات) حيث نصت: "**ينتخب أعضاء لجنة المديرية لمدة سنتين، بواسطة الاقتراع السري، في اجتماع علني مخصص لهذا الغرض**" واذا ما اطلعنا على مهام لجان المديريات ومجالس المنفذيات ندرك أهميتها في التخطيط والرقابة واقتراح المشاريع، وندرك أن سعاده نفسه كان منفتحًا على آليات الانتخاب التمثيلي بأفق تعبيري متى توفرت شروط الوعي والحرية والمساواة ومتى ترسخت قيم المواطنة الحقة في المجتمع والدولة.

وبعد عودة سعادة إلى لبنان عام 1947، سئل من أحد الصحافيين ما هو تصوره حول شكل الأمة السورية المقبلة، فأجاب: "**جمهورية برلمانية ديمقراطية وعلمانية قبل كل شيء**" (الآثار الكاملة، ج 14: 64)، وهذا يدل دلالة واضحة على الاتجاه الديمقراطي لدى سعاده سواء الديمقراطية التعبيرية في ظروف التجزئة والانقسامات الأفقية والعامودية وغياب الوعي قبل انتصار الفكر النهضوي أي الديمقراطية المعبرة عن علاقة الحزب بمجتمعه باعتباره حركة تعبر تعبيرا أمينا عن مصالحه وتوقه للتحرر والوحدة والإصلاح، أو باعتماد آليات ديمقراطية تعبيرية وتمثيلية في آن بعد أن تكون النهضة قد فعلت فعلها في المجتمع وعيًا وترسيخًا لقيم المواطنة ومفاهيمها.

في العام 1935 دعا سعاده الانتداب الفرنسي إلى احترام حقوق المواطن قائلًا: "في نظام ديمقراطي كالنظام الذي يقال إنه سائد في هذه البقعة، هنالك حقوق مقدسة هي حقوق العضوية التي تبيح لكل عضو من أعضاء هذه الجمعية، التي هي الدولة اللبنانية، حق التفكير، وحق الاعتقاد، وحق نقل الاعتقاد، وحق التصريح بالآراء وحق الاجتماع للمداولة في العقائد والآراء، وحق تكوين رأي في الحكومة وأشكالها، ونقل هذا الرأي إلى عضو أو أعضاء آخرين، فيفسح المجال أمام الشعب للتطور نحو أفضل النظم وأقوم المبادئ وأصلح الحالات. فإذا جرى تدخل من قبل الحكم بقصد تعطيل هذه الحقوق المقدسة، كانوا طغاة ظالمين يدوسون الحقوق عينها التي أوصلتهم إلى الحكم". (الأعمال الكاملة، الجزء 2: 356).

لقد أكد سعادة على دور الحزب في ترسيخ مبادئ الحقوق المدنية سواء بين أعضائه أو على مستوى الشعب كله ووضع قواعد نظام جديد يقيم العدل الاجتماعي والاقتصادي" (الأعمال الكاملة، الجزء 4:260).

خلاصة القول، أن الأساس التعاقدي الذي بنى سعاده على قاعدته حزبه هو أساس فكري عقائدي في نظرته الى الحزب وفي احترام الإرادة العامة سواء في الحزب أو في خارجه، وهذا الأساس هو المرتكز لمقاربة عميقة لمسألة الديمقراطية المرتبطة بالوعي واحترام الحريات والمشاركة في القرار سواء مباشرة أو مداورة وهذا هو جوهر مفهوم الحرية والعدالة والديمقراطية كمفاهيم أساسية لبناء المجتمعات.

التعاقد مع سعاده بين الرسالة والانتماء *

بقلم الأمين أحمد أصفهاني

عندما حسم أنطون سعاده، في وقت ما بين سنة 1927 وسنة 1928، قراره بالعودة إلى الوطن، كانت قد ترسخت لديه قناعتان أساسيتان: الأولى أن أي عمل نهضوي يجب أن ينطلق من الوطن. والثانية هي أنه هو بالذات يحمل بذور تلك النهضة القومية الاجتماعية الشاملة القادرة وحدها على وضع حد لقرون من التخلف والانحطاط وضياع الهوية القومية وتردي القيم الأخلاقية في مجتمع سوري ما كاد يتنفس الصعداء بانزياح كابوس أربع مئة سنة من الاستبداد العثماني حتى وقع فريسة الأطماع الاستعمارية الفرنسية ـ الإنكليزية التي قسّمت البلاد وعزّزت التناقضات العرقية والدينية والطائفية على كل الأصعدة.

التجارب الحزبية والسياسية والصحافية في المغترب الأميركي وضعت قواعد الرسالة النهضوية في ذهن سعاده ووجدانه. ومع أن هاجس الوطن ظل مسيطرًا عليه طيلة سنوات الاغتراب الأولى في البرازيل، كما نجد في مقال **"ذكرى الأهل والوطن"**(1) سنة 1923 عندما يقول: **"فالوطن ينتظرني والأهل يترقبونني"**، إلا أن الصيغة الأساسية لمبادئ تلك النهضة لم تتبلور نهائيًا إلا بعد عودته إلى الوطن سنة 1930. والمذكرات المتفرقة التي سجلها ابتداءً من آذار سنة 1929 (2) تؤكد، حتى في تلك الفترة المبكرة، أن الغاية من عودته إلى الوطن هي بعث نهضة قومية اجتماعية جذرية. يقول: **"أمي وبلادي ابتدآ حياتي وسيلازمانها حتى الانتهاء. فيا أيها الإله أعنّي لأكون بارًا بهما"**. ويضيف: **"لا. لا. يجب أن لا أكون أنانيًا. بل يجب أن أفكر بآلام الملايين من بني أمتي أولًا، ثم أعود فأفكر في نفسي (...) يجب أن أنسى جراح نفسي النازفة لكي أساعد على ضمد جراح أمتي البالغة"**.

إن المتمعن في فكر سعاده وسيرة حياته لا يجد صعوبة قط في تلمس ملامح نزعة رسولية في شخصيته. فالعقيدة القومية الاجتماعية التي بشّر بها في الوطن وفي المغتربات لا تقتصر على تأسيس حزب أو حركة فحسب، وإنما هي نهضة تسعى إلى ترقية الحياة السورية وتغييرها بصورة جذرية عبر خلق "إيمان اجتماعي واحد قائم على المحبة" (3)، وتريد في الوقت نفسه أن تخلق الإنسان الجديد وتوّحد العقائد المتنافرة والمتناحرة في عقيدة قومية واحدة تصبح هي محط الإيمان الفردي والجماعي. ولعل سعاده تردد في التركيز على هذا الجانب الرسولي في مرحلة التأسيس الأولى بين 1932 و1935، غير أن خطابه المنهجي الأول الذي أسميناه "خطاب الزعامة" لا يدع مجالًا للشك مطلقًا: "إنه (أي الحزب) فكرة وحركة تتناولان حياة أمة بأسرها، إنه تجدد أمة توهم المتوهمون أنها قضت إلى الأبد". ثم يضيف: "هذا هو الحزب السوري القومي للذين وحدوا أيمانهم وعقائدهم فيه".(4) كما أنه حرص على تأكيد هذه المعاني النهضوية في رسالته إلى حميد فرنجيه من سجنه الأول سنة 1935: **"رأيت أن أسير إلى السياسة باختطاط طريق نهضة قومية جديدة تكفل تصفية العقائد القومية وتوحيدها"**.(5)

صحيح أن التفسير الحرفي لعبارة "العقائد القومية" الواردة أعلاه يمكن أن يكتفي بالجوانب العرقية أو اللغوية أو الكيانية كما كانت في مطلع القرن الماضي. لكن الصحيح أيضًا أن العوامل الدينية والمذهبية كانت دائمًا متمازجة مع التقسيمات العرقية واللغوية والكيانية في بلادنا بحيث لا مجال للتفريق بينها. ولنتذكر أن المخططات الفرنسية والبريطانية لسورية الطبيعية في تلك الفترة سعت إلى خلق كيانات "مستقلة" على أسس مذهبية أو عرقية. لذلك فإن "تصفية" تلك العقائد بكل تشعباتها ومضامينها تعتبر خطوة أولية وضرورية لـ "توحيدها" في العقيدة القومية الاجتماعية التي أوجبت على كل من ينتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي أن يؤدي قسمًا حزبيًا يتضمن

عبارة: "وأن أتخذ مبادئه القومية الاجتماعية إيمانًا لي ولعائلتي وشعارًا لبيتي".

إن حرص سعاده على مراعاة الحساسيات الاجتماعية في ما يتعلق بإظهار الطبيعة الرسولية للعقيدة التي يدعو إليها لم تمنع الأعضاء الأول من تلمس الملامح الغامضة لتلك الرسالة. فهذا نديم جواد عدره الذي انتمى إلى الحزب سنة 1937 يصف سعاده في مذكراته قائلًا: "لم يكن متعلمًا كثيرًا ولكنه كان مفكرًا. لم يطرح نفسه نبيًا ولا رسولًا، وإن كان في سيرته وأقواله شيء من التمثل بالرسل والأنبياء. ألم يقل في خطاب له في القلمون إن سورية شهدت في الماضي أديانًا تهبط من السماء إلى الأرض، ولكنها اليوم تشهد دينًا جديدًا يصعد من الأرض إلى السماء".(6) أما الفنان محمد شامل فلم يتردد في إلقاء قصيدة(7) بحضور سعاده جاء فيها:

وإني، زعيم القوم، جئت مبايعًا على دينك القومي مع كل مسلم

كما بايع الأنصار قدمًا محمدًا وصافى الحواريون عيسى بن مريم

غير أن تحفظ سعاده الذي رافق المرحلة التأسيسية سرعان ما تراجع لصالح إبراز البعد الرسولي في العقيدة القومية الاجتماعية. فلنقرأ المقاطع التالية من خطبه ومقالاته ورسائله في الأربعينات، فهي تعطينا نماذج معبرة عما نتحدث عنه:

- "كما حارب أعداء المسيحيين هذه الدعوة في المسيح، وكما حارب أعداء المحمدية هذه الدعوة في محمد، كذلك حارب أعداء القومية الاجتماعية هذه الدعوة في أنطون سعاده (...) ولكن المسيحية والمحمدية انتصرتا في الأخير على جهالات الناس وأباطيلهم وأوجدتا حياة جديدة لأتباعهما، والرسالة القومية الاجتماعية تضيف اليوم انتصارًا جديدًا عظيمًا مشرقًا إلى انتصاراتها الماضية. وإن كنا لا نزعم لها صفة تينك الرسالتين الإلهيتين، فإننا نؤكد أنها تستحق ما استحقتا من الانتصار". (خطاب في مدينة بوينس آيرس، 8 آب 1946). (8)
- "في كل هذه المدة الطويلة، وبعد كل هذه المحن العظيمة، لم يضعف إيماننا بل قوي – إيمانكم بي وإيماني بكم. آمنتم بي معلمًا وهاديًا للأمة والناس ومخططًا وبانيًا للمجتمع الجديد وقائدًا للقوات الجديدة الناهضة الزاحفة بالتعاليم والمثل العليا الجديدة إلى النصر. وآمنت بكم أمة مثالية معلمة وهادية للأمم، بناءة للمجتمع الإنساني الجديد". (رسالة إلى القوميين الاجتماعيين، 10 كانون الثاني 1947). (9)
- "والشعب الذي صار يزداد وعيه وإدراكه لأهداف الحزب السوري القومي الاجتماعي، يزداد اليوم التفافا حول الزعيم صاحب رسالته وقائد صفوفه (...) وها هو الحزب يرد التهجمات ويشق طريقه نحو غايته الأولى التي تحوّل سورية كلها من وطن أمم دينية متباغضة إلى وطن أمة اجتماعية موحدة في المثالية القومية الاجتماعية". (مقال في "صدى النهضة"، بيروت 20 نيسان 1947). (10)

كل رسالة، سواء كانت سماوية أو أرضية، دينية أو اجتماعية، تبدأ مع شخص فرد. ربما ينضم إليه لاحقًا حواريون وصحابة وأعوان، لكنه هو الأساس. "والإصلاح، الذي لا يمكن أن يكون إلا من الداخل، يجب أن يكون من فرد انشق على فساد المجموع وتغلب على أهوائه. هذا الفرد هو الذي يحتاج إلى ضمانات السلطة ضد فساد الشعب، وليس الشعب هو الذي يحتاج إلى هذه الضمانات".(11) ونحن في هذه الحالة أمام معادلة من طرفين: صاحب الدعوة أو الرسالة، والمقبلين على الدعوة أو الرسالة. والعلاقة بينهما تحتاج إلى صيغة من التعاقد الملزم، نستطيع أن نطلق عليه اسم "التعاقد الرسولي"، مع التنبيه سلفًا إلى الفوارق الجوهرية بين دعوة تنطلق من الوراثيات وتتناول الغيبيات وأخرى تنبثق من الواقع وتعالج قضايا المجتمع. وإلى النوع الثاني، تحديدًا، تنتمي عقيدة سعاده القومية الاجتماعية.

نقرأ في مرويات ومذكرات جورج عبد المسيح وجبران جريج وعبدالله قبرصي وغيرهم من رجال الرعيل الأول في الحزب أن مادة التعاقد الأولى بين سعاده والمقبلين على اعتناق دعوته كانت عبارة عن ورقة دفتر دُونت عليها بخط اليد المبادئ الأساسية والإصلاحية والقسم الحزبي. لم تكن شروح المبادئ قد سُجلت بعد، واكتفى الأعضاء الأول بشروحات شفهية كان يلقيها سعاده عليهم في لقاءات تجمعه بهم فرديًا أو ثنائيًا أو أكثر. وعندما حان وقت تأسيس الحزب من الأفراد الخمسة الذين أختارهم من بين النخبة المثقفة، تم ذلك "بالاعتناق التتابعي للعقيدة من قبل الأفراد وليس باجتماع في يوم معين".(12).

الرابط القانوني الأول بين سعاده وأعضاء الحزب اقتصر على نص القسم الحزبي الذي شكل الإطار التعاقدي بين صاحب الدعوة والمقبلين عليها. وقد وردت في القسم عبارة مهمة جدًا في سياق تحديد واجبات أعضاء الحزب، وهي: "... وأؤيد زعيمه وسلطته". لكننا نعلم، عندما وُضِع نص القسم في تلك الفترة المبكرة من نشوء الحزب، أن العقيدة لم تكن قد اتضحت كليًا بعد للمؤمنين بمبادئ النهضة القومية الاجتماعية، وأن صلاحيات سعاده - كمؤسس للحزب وزعيم له - كانت تحتاج إلى بلورة تشريعية دقيقة... اللهم إلا من حيث أنه صاحب الدعوة إلى العقيدة ومؤسس الحزب العامل على "بعث نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئه (أي الحزب) وتعيد إلى الأمة حيويتها وقوتها". (غاية الحزب).

الاختبار الفعلي لمدى التزام الأعضاء الخمسة بموجبات القسم جاء بعد أشهر عدة على اجتماع "التأسيس". تبين لسعاده أن اثنين من الرفقاء الخمسة ظلوا متأثرين بنزعات سياسية فردية، فرأى أنه من الضروري تنقية الحزب منهما بالطرد حرصًا على سلامة المنظمة

القومية في انطلاقتها. وفي هذا الصدد يقول: "ولما لم يكن قد وُضع للحزب دستور، رأيت أن يكون الطرد بصورة حل الحزب".(13) أما الثلاثة الباقون فقد عادوا لاحقًا إلى "تأسيس" الحزب ملتزمين بمبادئه، مؤيدين سلطات زعيمه على أساس مفهوم "التعاقد الرسولي"!

ماذا نقصد بـ "التعاقد الرسولي"؟

غالبية الرسالات الدينية والاجتماعية تقوم على مبدأ التعاقد أو المبايعة. ولعل الرسالة الإسلامية المحمدية في شبه الجزيرة العربية تقدم لنا أوضح مثال على هذا المفهوم. باشر النبي محمد بن عبدالله دعوته إلى رسالته الجديدة بشهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله". لم تكن الدعوة مكتملة آنذاك، بل هي بالكاد قدمت أفكارًا أولية عامة، ولم تكتمل إلا بوفاة النبي نفسه. قامت مبايعة الناس للنبي، أفرادًا وجماعات، على مبدأ من شقين: أولًا، وحدانية الله الذي لا إله إلا هو. وثانيًا، أن محمدًا هو رسول الله الواحد الأحد ذي القدرة المطلقة. ومنطق التعاقد أو المبايعة في هذه الحال يكون كالتالي: إذا كانت وحدانية الله أمرًا مسلمًا به بالمطلق، وإذا كانت رسولية النبي مسلمًا بها بالمطلق، فإن كل ما يأتي به النبي في حاضره ومستقبله إنما هو من الله بالمطلق أيضًا. وهذا ما رسخته الآية القرآنية "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله" (سورة الفتح ـ الآية 10).

وعلى هذا الأساس تمكن النبي من إدخال تشريعات وقواعد جديدة تبعًا لظروف المكان والزمان، بعضها كان مخالفًا لما سبقه في ما يعرف بـ "الناسخ والمنسوخ"، من دون أن يواجه رفضًا عامًا من الذين بايعوه على أنه "رسول الله". فالخمرة التي لم تكن محرمة بداية، تم تحريمها لاحقًا... وتقبّل المؤمنون ذلك لأن الرسول إنما يتكلم بـ "وحي من الله". فـ "التعاقد الرسولي" لا يعني فقط قبول وقائع الحاضر بل ما يحمله المستقبل كذلك... لكن من ضمن ضوابط معينة، كان أبرز ضابط منها في سيرة النبي العربي "الرسولية لله الذي لا إله إلا هو".

إن سعاده هو "صاحب الرسالة القومية الاجتماعية المدرجية"(14)، وعندما بدأ التبشير بها سنة 1930 لم تكن معالمها قد اتضحت كاملة للمقبلين على الدعوة. عبارة الأديب القومي فؤاد سليمان التالية تؤشر إلى ما كان يتوقعه الأعضاء الأول: "عرفته (أي سعاده) عندما كان الحزب ضبابًا في دماغه، فأحسست بأن من خلال ذلك الضباب سينبثق فجر الإيمان الحقيقي".(15) ومن الطبيعي أن سليمان يقصد العقيدة كلها وليس فقط الحزب من حيث هو أشكال نظامية دستورية. وهذا الجانب التعاقدي كان واضحًا تمامًا لسعاده نفسه، إذ نراه يقول في التحقيق بعد الاعتقال الثاني سنة 1936 إن الرعيل الأول من أعضاء الحزب "كانوا يعملون ولا يزالون بمجرد الفكرة المطلقة".(16)

لم يكن واردًا عند سعاده أن يبقى القوميون الاجتماعيون عاملين "بمجرد الفكرة المطلقة"، فالنهضة بالنسبة إليه تعني الخروج من الفوضى والشك إلى الوضوح واليقين. لكن تحقيق مثل هذه النهضة في المجتمع السوري دونه صعوبات جسام ناتجة عن الانحطاط في المناقب والأخلاق: "في سورية فساد الحكم هو من فساد الشعب (...) ولكن الشعب في حالة فساد كثير فهو يجهل حقوقه ومصالحه ولا يشعر بوحدتها ووحدة شخصيته. في سورية رجال الدين الفاسدون قد حولوا الطوائف إلى أحزاب سياسية، ورجال الشعب خضعوا لسياسة التفرقة الدينية وانقادوا إلى مثالب الانحطاط".(17) ومن هذا المنطلق فإن العمل النهضوي، في ظل ظروف الفساد والانحطاط، يتطلب قيادة استثنائية تتمثل في شخص الزعيم الذي يطلب صلاحيات مطلقة "ليمنع الفوضى وليعلّم ويدرّب وينشئ المؤسسات الجديدة الصالحة لحمل أعباء مطاليب الحياة الجديدة، وليضع قواعد سلوكية جديدة تقيم فضائل الحرية والواجب والنظام والقوة بدلًا من الفوضى والرغبات الخصوصية والمشارب الانحطاطية والتفكك والتراخي".(18)

الصلاحيات التي طلبها سعاده يمكن تصنيفها في خانة "التعاقد الرسولي". ونحن نقرأ في مرويات الرعيل الأول النقاشات والمماحكات الحزبية الداخلية التي مهدت أخيرًا لإقرار التعديلات الدستورية المتضمنة صيغة نهائية لصلاحيات الزعامة. فالقاعدة العامة في أي تعاقد هي أن يلتزم طرفا العقد، وهما متمتعان بالإرادة الحرة الكاملة، بالشروط الواضحة المبيّنة سلفًا لكل منهما. جاء في وثيقة بخط سعاده (19) أثناء الاعتقال الثاني سنة 1936 أن الدستور عُدّل "ليعطي شكل الاتفاقية أو المبايعة بين مؤسس النهضة والحزب والأعضاء. ومن ثم أساس إبقاء التشريع في الزعيم. ولإعطاء الشكل الصحيح لكيفية نشر مؤسسات الحزب التي هي من تشريع وإنشاء الزعيم".

ولا تشذ رسالة سعاده ودعوته إلى العقيدة القومية الاجتماعية عن هذه القاعدة العامة. الفارق الأساسي أنها لا تربط نفسها بالقوى الماورائية، وإنما هي موجهة إلى شعب معين في بيئة جغرافية معينة. ولأن الفكر القومي الاجتماعي لا يؤمن بالجمود ولا بالحتميات، فقد كان من الطبيعي أن تنمو عقيدة سعاده في سياق الأحداث التي واجهها طيلة حياته. إن مفهوم "التعاقد الرسولي" هو الذي سهّل لسعاده، بعد مرور سنوات عدة على تأسيس الحزب وقيام التعاقد بينه وبين المقبلين على الدعوة، مسألة توضيح الحدود الجغرافية للوطن السوري من ناحية العراق (سورية الشرقية)، وكذلك إضافة كلمة "الاجتماعي" بكل مضامينها إلى اسم الحزب السوري القومي. وبالتالي، لم تشعر الغالبية العظمى من القوميين الاجتماعيين بضرورة الشك في ما أقدم عليه الزعيم، ذلك أن نص "قسم الزعامة" هو "الشرط المُلزم" الذي يوفر الضمانة المطلقة للتعاقد بين الطرفين: "أن أكون أمينًا للمبادئ التي وضعتها وأصبحت تكوّن قضية الحزب السوري القومي، ولغاية الحزب وأهدافه، وأن أتولى زعامة الحزب السوري القومي وأستعمل سلطة الزعامة وقوتها وصلاحياتها في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيته، وأن لا أستعمل سلطة الزعامة إلا من أجل القضية القومية ومصلحة الأمة". (20)

عودة إلى الرئيسية

قبل سنة تقريبًا من استشهاده، ألقى سعاده خطابًا في مؤتمر المدرسين القوميين الاجتماعيين بتاريخ 17 تموز 1948 قال فيه: "كان عليّ أن أضع قواعد الحياة القومية وفلسفة الحياة القومية الاجتماعية وأن أشرّع للمنظمة القومية الاجتماعية التي أعلنتها سنة 1935 دولة الشعب السوري الاجتماعية المستقلة الحقوق والواجبات العامة، وأن أؤسس المؤسسات الجديدة الصالحة للحياة الجديدة التي نريدها ولمُثلها العليا".(21) وما كان لسعاده أن يحقق كل تلك الإنجازات، ويترك للقوميين الاجتماعيين وللشعب السوري عمومًا عقيدة قومية موحِّدة وإرثًا نضاليًا مميزًا ومُثلًا عليا راقية ومدرسة مناقبية عزّ نظيرها في العالم... ما كان له أن يُنجز كل ذلك لولا إدراكه أنه يحمل رسالة نهضوية خاصة إلى سورية والعالم العربي، ولولا إدراك الأكثرية الساحقة من القوميين الاجتماعيين أن تعاقدهم الرسولي معه هو السبيل القويم لبناء الإنسان المجتمعي الجديد.

- **كان من المفترض أن تشكل هذه المادة الفصل التاسع من كتابي "مفهوم الحزب عند سعاده" الصادر سنة 2016، لكن تم تأجيل النشر آنذاك لاعتبارات خاصة.**

الهوامش:

1ـ الأعمال الكاملة، الجزء الأول. صفحة 45.
2 ـ المرجع السابق، صفحة 217.
3 - المرجع السابق، صفحة 349.
4 ـ المرجع السابق، الجزء الثاني. صفحة 4.
5 ـ المرجع السابق، صفحة 10.
6 ـ نديم جواد عدره، "بين المشيخة والعلمنة". صفحة 29.
7 ـ جريدة "البناء"، العدد 569. تاريخ 7 آذار 1987.
8 ـ الأعمال الكاملة، الجزء السابع. صفحة 161.
9 ـ المرجع السابق، صفحة 179.
10 ـ المرجع السابق، صفحة 234.
11 ـ المرجع السابق، الجزء الرابع. صفحة 163.
12 ـ المرجع السابق، الجزء الحادي عشر. صفحة 286.
13 ـ المرجع السابق، الجزء الثالث. صفحة 185.
14 ـ المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 231.
15 ـ جبران جريج، "من الجعبة ـ الجزء الأول". صفحة 107.
16 ـ جان دايه، "محاكمة أنطون سعاده ـ وثائق التحقيق الرسمي". صفحة 74.
17 ـ الأعمال الكاملة، الجزء الرابع. صفحة 163.
18 ـ المرجع السابق، صفحة 163.
19 ـ جان دايه، مرجع سابق. صفحة 112.
20 ـ الأعمال الكاملة، الجزء الثاني. صفحة 1.
21 - المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 228.

الزعامة في الحزب السوري القومي الاجتماعي

بقلم الأمين د جهاد نصري العقل

في أول احتفال رسمي بذكرى ميلاد سعاده، في الأول من آذار عام 1935 بعد تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي، وقبل انكشافه، تلا سعاده "قسم الزعامة"، الذي تصدّر في ما بعد مقدمة دستور الحزب وقوانينه. ومنذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، والاحتفالات ومظاهر الفرح في الأول من آذار تعمّ أرجاء الوطن والمغتربات، بالرغم من كلّ الظروف الصعبة والاضطهادات التي واجهها الحزب وزعيمه. كما زخرت أدبيات النهضة القومية الاجتماعية في الأدب والشعر وسائر الفنون الجميلة الأخرى بالتعبير عن معاني الأول من آذار، وفي مقدمتها معنى "الزعامة"، الذي تعرّض في الكثير من الكتابات الملتزمة بالعقيدة، وفي غيرها من الكتابات، إلى انتقادات سلبية ناتجة عن عدم الاعتماد على النصوص التي كتبها سعاده في توضيحه لمعنى الزعامة.

لقد حرص سعاده في كتاباته وتوجيهاته الإدارية على أيضّاح معنى الزعامة، وكان متشدّدا في ذلك، فالزعيم "ممثّل القوميين وكرامتهم والمعبّر عن أشواق الأمة ومثلها العليا وإرادتها ومقدرتها، وهذه **أشياء مقدسة** توجب أشد الاحترام، وأعظم الدّقة ". من هنا يجب تتبع النصوص التي وردت فيها المصطلحات الخاصة بهذا المفهوم، ومن أبرزها: لقب الزعيم. مبدأ الزعامة. مسألة الزعامة. معنى الزعامة. سلطة الزعيم. الزعامة أصحّ تعبير عن الديمكراتية. فيما يأتي النصوص التي وردت فيها هذه المصطلحات الخاصة بموضوع الزعامة والزعيم.

لقب الزعيم

"لاحظت (سعاده) في عدد نشرة "عمدة الإذاعة" أنّكم استعملتم على الصفحة الأولى من الغلاف "رأي الزعيم سعاده"، خلافا للتوجيهات، التي كنت قد أعطيتها سابقا وطلبت إليكم تعميمها، والقاضية بالفصل بين لقب الزعيم واسمه، فإذا ذُكر اللقب وجب عدم ذكر الاسم، وبالعكس، إذ ذُكر الاسم وجب عدم ذكر اللقب، كذلك وجوب إبطال لقب الزعيم لغير الزعيم، كما للرتب العسكرية.....إنّ لقب الزعيم في النهضة القومية الاجتماعية هو لقب مختصّ بزعيم الحركة القومية الاجتماعية، ومؤسس هذه النهضة، وقائدها السياسي والإداري والعسكري، ومعلمها العقائدي، فلا يجوز استعماله في غير هذا الوضع.

ومتى قلنا **بمفهوم** النهضة القومية الاجتماعية الزعيم، عنينا أنطون سعاده، **فلا نقول الزعيم سعاده**، لأنّ هذا غلط، إذ قد يدلّ على أنّ لنا أكثر من زعيم، وإنّنا نحتاج لذكر الاسم لتعريف أي زعيم نعني. وهذا يخالف الواقع والحقيقة، التي لا شكّ فيها عندنا. فنحن حين نقول الزعيم، لا يمكن أن نعني غير زعيمنا الأوحد، الذي لا زعيم غيره في عرفنا. ولذلك لا حاجة إلى تعريفه باسمه الشهير. وكذلك حين نقول سعاده نعني الزعيم بمجرّد الاسم، فلينتبه القوميون الاجتماعيون إلى **ضبط** هذا الاستعمال". المرجع " نشرة عمدة الإذاعة، ع4، تاريخ 1947/8/15 ص1"

مبدأ الزعامة

ورد هذا المصطلح في رسالة من سعاده الى الرفيق نعمان ضو بتاريخ 1944/12/23: "إن التجائي إلى المشاريع التجارية لم يكن إلا من أجل ترك مجادلة أخس الناس في مسائل النظام القومي والواجب المطلوب من كلّ فرد وغير ذلك. فهل أعود الآن إليه بعد أن خبرته سنوات؟ وهل يمكن التعويل على عهود عقلية تنقض **مبدأ الزعامة** وتحنث بإيمانها، لأنّها تقول إنّ الزعيم لا يجوز أن يتزوج؟ ومن يكفل لي أنّ الذين يتعهدون اليوم بأمر لا ينقضونه غدا؟ " سعاده: الأعمال الكاملة، ج 10، ص457

مسألة الزعامة

"ان **مسألة الزعامة** هي من اسس الحركة القومية ولا يمكن ان تبقى في غموض عند الأعضاء" سعاده، المرجع نفسه، ص 219.

معنى الزعامة

"...إنّ الزعيم هو مؤسس النهضة السورية القومية ومعلم القوميين الفلسفة والنظام القوميين، وقائدهم الأعلى الذي يجب عليهم الاحترام له، والرجوع إلى حكمه وتدبره في كلّ ما يتعلق بالحركة السورية القومية من فكر وعمل في إدارة ونظام وقانون وسياسة ونظرات اجتماعية – اقتصادية- روحية،

عودة إلى الرئيسية

لأنّ هذا هــو **مــعــنــى الــزعــامــة** في الحركة السورية القومية..." سعاده، م نفسه، ص222.

– الزعيم ممثّل جميع القوميين وكرامتهم... والمعبر عن نفسية الأمة وأشواقها وإرادتها ومقدرتها وهذه أشياء مقدسة يجب احترامها.

"...فـ أنطون سعاده لا يريد منزلة أعلى من منزلة أي فرد سوري حرّ، ولكن الــزعــيم ليس مجرّد شخص أنطون سعاده، إنّه ممثّل جميع القوميين الاجتماعيين، وكرامتهم...ويعبّر عن أشواق الأمة، ومثلها العليا وإرادتها ومقدرتها، وهذه أشياء مقدسة، توجب أشدّ الاحترام وأعظم الدّقة". سعاده، م نفسه، ص 288.

"إنّ الزعيم قد وضع رسالته أمانة قي قلوب القوميين الاجتماعيين وعقولهم، وهي الرسالة التي عبّر بها ليس عن نظرته الشخصية الفردية إلى العالم وشؤونه بل عن نظرة الأمة السورية إلى الحياة والكون والفن، ولذلك أصبحت هذه عقيدة القوميين الاجتماعيين وإيمانهم لأنّهم وجدوا فيها التعبير عن نفسية أمتهم وخططها في التاريخ. والزعيم نفسه قد عبّر عن إيمانه العظيم بأمته وعن أنّه ليس إلا معبّرا عن شخصيتها العظيمة ومواهبها السامية بقوله في ختام كتابه الأخير "الصراع الفكري في الأدب السوري": إنّ ما دفعني إلى إعطاء هذا التوجيه هو محبة الحقيقة الأساسية التي وصل إليها تفكيري ودرسي وأوصلني إليها فهمي، الذي أنا مديون به كلّه لأمتي وحقيقتها النفسية".

سعاده، النشرة الرسمية للحركة القومية الاجتماعية، العدد1، المجلد 1، تاريخ 1947/11/15.

سعاده حامي الحزب بنفسه

"إنّ سعاده لم يشأ أن يجعل الحزب حاميا له، بل شاء أن يكون هو حاميا للحزب بنفسه. ولو شاء الزعيم لأضرم ثورة لم ترَ لها سورية مثيلا، ولم عاد إلى السجن ثانية.

إنّنا وجدنا رجالا آخرين يهربون عند كلّ شدّة ويتخلون عن مسؤولياتهم، هم أصحاب البطولة القزمية، أمّا أنطون سعاده فيعلو علوا كبيرا على هذه البطولة الحقيرة "

سلطة الزعيم، ضمان سلامة الحزب السوري القومي الاجتماعي

رأى سعاده أنّ ضمان سلامة الحزب السوري القومي الاجتماعي هي بواسطة سلطة الزعيم التشريعية والتنفيذية التي بايع القوميون سعاده عليها مبايعة بقسم صريح النص، ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكك الحزب، وإن بقيت العقيدة. لنقرأ النصّ:

«إذا درسنا جيدًا تاريخ الحزب السوري القومي ودققنا في الاختبارات التي مرّت به وجدنا هذه السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب الذي يمثل نهضة الأمة السورية. ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكك الحزب، وإن بقيت العقيدة، من جراء المناورات التي قام بها أفراد جلبوا معهم إلى داخل الحزب أمراض النفسية الانحطاطية وحاولوا أن يحوّلوا الحزب إلى ميدان تتبارى فيه منافعهم الخصوصية وأهواؤهم»

من هذا القول آخذ النقطة الابتدائية للدرس الجديد الذي يشتمل عليه هذا المقال في ضمان سلامة الحزب السوري القومي بواسطة سلطة الزعيم التشريعية والتنفيذية التي بايع القوميون سعاده عليها مبايعة بقسم صريح النص.

الزعامة أصحّ تعبير عن الديمكراتية

قال سعاده: "إنّ زعامة الحزب السوري القومي الاجتماعي هي أصحّ تعبير عن الديمكراتية، إنّ هذه العقود الثنائية بين صاحب الدعوة إلى القومية السورية وبين المقبلين عليها وتكريسها بالقسم الحزبي الواضح الصريح لهي الدليل العلميّ الملموس للديمكراتية بمفهومها العلمي المختص.

ما هي الديمكرتية؟ أليست هي ممارسة الاختيار بموجب الإرادة الحرّة المطلقة بين القبول أو الرفض لأمر من الأمور؟ أليس قبول الآلاف لهذه الزعامة على هذه الأسس من الذين أصبحوا أعضاء في هذا الحزب هو أكبر استفتاء شعبي يشهد على ممارستهم الأصول الديمكراتية في الاختيار؟ هل جمع الزعيم هؤلاء الآلاف من السوريين القوميين الاجتماعيين بسلطان تعسفيّ أو بطريقة كيفية وفرض نفسه عليهم زعيما مطلق الصلاحيات؟ أم أنّه طرح عليهم قضية واضحة لا تقبل التأويل فارتبطوا معه فيها بعقد واضح أيضًا؟

إنّ الانتماء إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي دليل على ممارسة الديمكراتية. والزعيم ليس دكتاتورا بل هو زعيم أكبر وأعظم مؤسسة شُيدت على التطوّع الحرّ الناتج عن عميق الاقتناع الشخصيّ ونضوج الوعي والإدراك ". سعاده، المرجع نفسه، ع 16، تاريخ 15-3-1941

وعلى أساس الأسس الواردة أعلاه، نتفهم معنى التأسيس على مبدأ التعاقد - المبايعة، الذي هو الأساس في "فلسفة نشؤ الحزب".

التعاقد، أولا، هو جواب على السؤال: كيف تأسس الحزب؟ تأسس بموجب التعاقد القائم حصرا، بين الشارع وبين المقبلين على الدعوة. التعاقد هو بين إثنين؛ الأول ثابت هو الزعيم والثاني متغير هو كل فرد مقبل على الدعوة. التعاقد هو غير العقد وغير الاتفاق. التعاقد هو تفاعل، تفاعل مادي وروحي؛ مادي يتجلى في القسم، وروحي يتجلى في الإيمان المتبادل، في وحدة الروح. أمّا العقد أو الاتفاق فهو متحرك بالتراجع أو بالتعديل أو بالإلغاء أو بالاستبدال أو بالانتقال، وهو شأن مادي بحت. التعاقد هو شرطيّ؛ بين الزعيم والأمة المجسّدة في التعاليم، وغير شرطي بين الزعيم ومع المقبلين على الدعوة. التعاقد هو فقط بين الزعامة والمقبلين على الدعوة.

الزعيم هو زعيم الحزب مدى حياة الحزب، كونه كما أسلفنا "ممثّل جميع القوميين الاجتماعيين"، في استمرارية الحزب، وقد عاهد سعاده الأمة واشترط على نفسه مجموعة من القيم، تتجلى في قسم الزعامة:

أن يقف نفسه على أمته السورية ووطنه سورية، عاملًا لحياتهما ورقيّهما، (مبدأ التضحية الفردية في سبيل الأمة) - (راجع: الإسلام في رسالتيه، ط 1958، ص87) وعلى أن يكون أمينًا للمبادئ التي وضعها وأصبحت تكوّن قضية الحزب السوري القومي، ولغاية الحزب وأهدافه، (مبدأ الأمانة) وأن يتولى زعامة الحزب السوري القومي ويستعمل سلطة الزعامة وقوّتها وصلاحياتها في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيته، (مبدأ السلطة) وأن لا

يستعمل سلطة الزعامة إلا من أجل القضية القومية ومصلحة الأمة، (مبدأ غائية السلطة).

إنّ قسم الزعامة لم يكن شرطا بين سعاده والمقبلين على دعوته، بل كان في جوهره بل هو من صميم العظمة الواسعة اللامتناهية المستمرة التي هي عظمة المجتمع- عظمة الأمة السورية التي نحن أبناؤها وموطدو حقيقتها وعظمتها. جاء في خطاب سعاده في أول آذار 1949:

"...كان جوابي على معايدتهم قسمي المثبت في الدستور، هذا القسم الذي لم يكن شرطا في العقد التجاري بيني وبين القوميين الاجتماعيين، لأنّه لم يكن ولا يوجد بيني وبين القوميين الاجتماعيين عقد تجاري. كان قسمي في صميمه، أنّي وقفت نفسي على هذه الأمة، على أن أسعى لرفعها من حضيض الذلّ والاستعباد إلى الرقيّ والمجد، إلى حياة العزّ. فلم يكن قسمي شرطا لقسم القوميين الاجتماعيين على الولاء للعقيدة والنظام القوميين الاجتماعيين، وللزعيم، إذ لم يكن لأحد قطّ شكّ في حقيقتي وعزيمتي، ولم تؤسس القضية السورية القومية الاجتماعية على الشكّ، بل على اليقين.

أقسمت غير شاعر أنّني أقدّم منّة للأمّة، أقسمت شاعرا أنّني أعطيّ الأمّة ما يخصّها، كلّ ما فينا من خير وطموح وعظمة، ليس شيئا من خصوصيات الأنانيات الصغيرة المحدودة، التي لا يمكن أن تبني عظمة، أو تتسع لعظمة وطموح، بل هو من صميم العظمة الواسعة اللامتناهية المستمرة التي هي عظمة المجتمع- عظمة الأمة السورية التي نحن أبناؤها وموطدو حقيقتها وعظمتها.

كلّ ما فينا هو من الأمة، وكلّ ما فينا هو للأمة. الدماء التي تجري في عروقنا عينها، ليست ملكنا هي وديعة الأمة فينا ومتى طلبتها وجدتها...". سعاده، الإسلام في رسالتيه، ط3، 1958، ص 282 " الدين والفلسفة الاجتماعية".

ملاحظة: لم يطلب سعاده، صراحة، في قسم العضوية من المنتمي إلى الحزب "أن يقف نفسه على أمته السورية ووطنه سورية"، كما جاء في مقدمة قسم الزعامة، لماذا؟ لأنّه أراد أن يكون القدوة في التضحية والفداء،

وترك الحرية للمقبل على الدعوة المؤتمن على المبادئ، أن يضحي في سبيلها لأنّ في انتصارها انتصار الأمة وعزّها. سعاده وفى بقسمه، فكان القدوة.. وعلى المقبلين على دعوته الاقتداء به، فكرا ونهجا وممارسة وبطولة مؤيدة بصحة العقيدة.

قسم العضوية - قسم العقيدة

يختلف معنى الانتماء إلى الحزب عن غيره من معاني الانتماء إلى الجمعيات والمؤسسات والتجمعات، الانتماء إلى الحزب يعني الارتقاء عاموديا، أي الارتفاع من حالة إلى حالة أفضل، وليس الانتقال من حالة إلى أخرى بشكل أفقي أو انحداري.

ومن الأمثلة على الانتقال من حالة إلى أخرى: الانتقال من الفوضى إلى فوضى أخرى. أو محاربة الفوضى بالفوضى.

الانتقال من المذهبية إلى الطائفية، أو إلى التعصب والحقد وتكفير الآخر. أو الانتقال من العائلية إلى العشائرية إلى القبلية. الانتقال من الأنانية إلى الفردية المدمرة إلى الإقطاعية والاستبداد. أما الارتقاء، فهو الارتقاء عاموديا من حالة إلى أخرى أفضل منها، مثلا الارتقاء من الجهل إلى العلم والمعرفة، من الفوضى إلى النظام وإلى نظام أفضل منه. الارتقاء من شريعة الغاب إلى شريعة العقل. الارتقاء من المثالب إلى المناقب. الارتقاء من الولاءات الفردية الضيقة والكيانية المفككة إلى الولاء الوطني الواحد الجامع.

في انتماء الفرد اللاختياري: لا يختار الفرد أبويه، لا يختار المجتمع الذي يولد فيه، ويورث قسرا الدين والطائفة والمذهب التي لوالده.

في انتماء الفرد الاختياري إلى الحزب: عقلانية، يختار المجتمع القومي، يختار المذهب الجديد ـ الرسالة الجديدة ــ الفلسفة الجديدة ــ النظام الجديد راجع مقالة "المذهب القومي الاجتماعي"، سعاده، الأعمال الكاملة، ج3، ص448. راجع أيضًا خطاب الزعيم في البقاع الأوسط، 23-4- 1948، بمناسبة عيد الخضر- مار جرجس (الأعمال الكاملة، ج8، ص 202).

يختار الدين الجديد: "إنّ العالم قد شهد في هذه البلاد أديانا تهبط إلى الأرض من السماء، أمّا اليوم فيرى دينا جديدا من الأرض رافعا النفوس بزوبعة نحو السماء" راجع المحاضرة السابعة.

الولاء الواحد

أول ما تتحدّد معالم انتماء الفرد وعلاقاته وانتمائه في المجتمع، فعلى أسس متدرجة تبدأ بالعائلة فالعشيرة، وإذا ارتقت إلى أبعد من ذلك فإلى طائفته، وفي أحسن الحالات إلى "طبقته" إذا لامس النضج الاجتماعي والسياسي. ولا غرابة في ذلك أي في تمحوّر ولاء الفرد حول هذه المتدرجات، وذلك بسبب غياب الثقافة القومية، وفي جوهرها يقظة الوجدان القومي. في هذه المرحلة المشار إليها يتركّز همّ الفرد ونشاطه على إعلاء شأن "الفئة" المحّدد انتماءه لها، لعدّة عوامل منها الدّم أو العرض، أو أي عامل آخر غير قومي. وبالتالي فإنّ ولاءه الأخير هو لهذه الفئة دون غيرها. وضمن هذا الإطار يجد الفرد حقوق هذه الفئة ومصالحها هي محور تفكيره وسلوكه ونشاطاته، ولو تعارضت واختلفت وتناقضت وتضاربت وتنافرت مع حقوق الفئات الأخرى ومصالحها، ولو أدى ذلك إلى اللجوء إلى العنف والاقتتال، بين فئات المجتمع الواحد، كأساس لحسم الخلافات.

إنّ تعدّد الانتماءات الطوعية أو الكرهية في المجتمع الواحد يؤدي إلى تعدّد الولاءات، الأرض الخصبة، لنشوء النزاعات والخلافات حول القضايا المصيرية التي تواجه وحدة حقوق المجتمع ومصالحه، ممّا يؤدي إلى تفككه وضعفه وانهياره.

في خلاصة ما تقدّم:

كما هو ثابت من خلال النصوص الواردة أعلاه، الزعامة في الحزب هي:

أولا: مسألة الزعامة هــي جزء من كلّ، وهي من أسس الحركة القومية، أيّ من ثوابتها الأساسية الراسخة الثابتة. وقد طلب سعاده من الإدارة الحزبية أن تبقى هذه المسألة واضحة عند الأعضاء، وبالأخص الفصل بين لقب الزعيم واسمه، فلا يجوز القول، مثلا، الزعيم أنطون سعاده، والأصح استعمال اللقب بمعزل عن الاسم، أي الزعيم فقط للدلالة على سعاده.

ثانيا: معنى الزعامة، الزعيم هــو المؤسس والمعلم والقائد الأعلى والمرجع والحكم.

عودة إلى الرئيسية

ثالثا: الزعيم، ليس مجرّد شخص أنطون سعاده، هــو ممثّل جميع القوميين وكرامتهم. والمعبر عن نفسية الأمة وأشواقها وإرادتها ومقدرتها، وهذه أشياء مقدسة يجب احترامها..

رابعا: إنّ الزعيم قد وضع رسالته أمانة في قلوب القوميين الاجتماعيين وعقولهم، وهي الرسالة التي عبّر بها ليس عن نظرته الشخصية الفردية إلى العالم وشؤونه بل عن نظرة الأمة السورية إلى الحياة والكون والفن، ولذلك أصبحت هذه عقيدة القوميين الاجتماعيين وإيمانهم لأنّهم وجدوا فيها التعبير عن نفسية أمتهم وخططها في التاريخ.

خامسا: الزعيم هو حامي الحزب، ومتحمّل المسؤوليات، وصاحب البطولة العظمى

سادسا: سلطة الزعيم وإذا درسنا جيدًا تاريخ الحزب السوري القومي ودققنا في الاختبارات التي مرّت به وجدنا هذه السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب الذي يمثل نهضة الأمة السورية. ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكك الحزب، وإن بقيت العقيدة...

سابعا: من هذا القول آخذ النقطة الابتدائية للدرس الجديد الذي يشتمل عليه هذا المقال في ضمان سلامة الحزب السوري القومي بواسطة سلطة الزعيم التشريعية والتنفيذية التي بايع القوميون سعاده عليها مبايعة بقسم صريح النص.

ثامنا: إنّ زعامة الحزب السوري القومي الاجتماعي هي أصحّ تعبير عن الديمكراتية، إنّ هذه العقود الثنائية بين صاحب الدعوة إلى القومية السورية وبين المقبلين عليها وتكريسها بالقسم الحزبي الواضح الصريح لهي الدليل العلميّ الملموس للديمكراتية بمفهومها العلمي المختص

بناء عليه، الزعيم ليس شخصا عاديا عارضا في الحزب، هو الزعيم الحاضر الدائم في استمرارية الحزب الذي يحافظ على العقيدة القومية الاجتماعية ونظامها الجديد، هذا الحزب الذي تأسس بموجب تعاقد فردي – ديمقراطي حرّ، ومبايعة بقسم صريح (عقد ثنائي) بين كلّ فرد منتم إليه والزعيم. وفي تتبع المعاني الواردة في النصوص أعلاه، يتضح لنا أنّ "الزعامة" في الحزب السوري القومي الاجتماعي هي جوهر مؤسساته؛ وهي من أسس الحركة القومية، كما المبادئ – التعاليم والدستور، فإذا جردّنا الحركة القومية الاجتماعية من "معاني" الزعامة وقيمها ورموزها وسلطتها ورابطتها بالمقبلين على دعوتها، فلن يبقى من هذه الحركة إلا جسما جامدا أشبه ما يكون بتلك الجمعيات التقليدية ذات الغايات الشخصية المادية والمعنوية والأهواء الجامحة العابثة بالغايات النبيلة المثل العليا من أجل المنافع الشخصية.

الزعامة هي باختصار المؤسسة الحاضنة والحامية والهادية والقائدة للمؤسسات الحزبية الفاعلة من أجل تحقيق الغاية النبيلة التي اوجد الحزب من أجلها ألا وهي حياة الأمة السورية في الحرية والارتقاء والسعادة والعزّ، وجعل مصلحتها فوق كلّ مصلحة.

إنّ الزعامة في الحزب السوري القومي الاجتماعي، هي مؤسسة قومية اجتماعية معنوية، قائمة بذاتها، وبعد استشهاد سعاده، تستمر هذه المؤسسة، وتتجسّد في الشخصية الأساسية المنبثقة والمعبّرة عنها، أي حقيقة الأمة السورية ونفسيتها ورسالتها، وخططها في التاريخ، وقد وضع سعاده هذه الرسالة أمانة في قلوب وعقول المقبلين على الدعوة.

الزعامة ليست فردا تزول بزواله، الزعامة مؤسسة مستمرة باستمرار الأمة، التي مهمتها الأساسية تخطي كلّ الصعاب والمحن، والعودة من جديد إلى قيادة العالم وهداية البشرية نحو قيم الحقّ والخير والجمال، وهذا هو إيماننا العظيم المتبادل والذي لا يتزعزع بين الزعيم وبيننا كأمّة: "في كلّ هذه المدّة الطويلة، وبعد كلّ هذه المحن العظيمة، لم يضعف ايماننا بل قوي، إيمانكم بي وإيماني بكم. آمنتم بي معلما وهاديا للأمة والناس ومخططا وبانيا للمجتمع الجديد، وقائدا للقوات الجديدة، الناهضة الزاحفة بالتعاليم والمثل العليا إلى النصر. وآمنت بكم أمة مثالية معلمة وهادية للأمم، بناءة للمجتمع الإنساني الجديد، قائدة لقوات التجدّد الإنساني بروح التعاليم الجديدة التي تحملون حرارتها المحيية وضياءها المنير إلى الأمم جميعا..." (سعاده، رسالة الزعيم الثانية للقوميين الاجتماعيين، بونس أيرس، 10-1-1947) بهذا الإيمان العظيم الراسخ المتبادل بيننا وبين الزعيم، نحن من نحن، ونحن من سنكون.

ما ترك سعاده مناسبة إلا وشدّد فيها على مفهوم الزعامة وضرورة أيضًاح معناها للقوميين الاجتماعيين، فهي من قيم الحزب المقدسة التي توجب أشدّ الاحترام وأعظم الدّقة. وبالرغم من ذلك، فإنّ عدم وضوح "مفهوم الزعامة" عند الإدارات الحزبية المتعاقبة (باستثناء إنتفاضة1957)، أدى إلى "تعديلات "، غير دستورية، في القسم السوري القومي الاجتماعي: في قسم العضوية، في قسم المسؤولية، وفي القسم المستحدث لرئاسة الحزب، والمجلس الأعلى والمحكمة الحزبية، حيث تمّ حذف أو تعديل كلّ ما له علاقة بالتعاقد مع الزعيم. وهذا انحراف واضح عن فلسفة نشوء الحزب السوري القومي الاجتماعي القائم على مبدأ ديمقراطي عصري - على مبدأ دستوري أساسيّ، جوهره: إنّ هذه العقود الثنائية بين صاحب الدعوة إلى القومية السورية وبين المقبلين عليها وتكريسها بالقسم الحزبي الواضح الصريح لهي الدليل العلميّ الملموس للديمكراتية بمفهومها العلمي المختص. ولقد تعاقدنا مع سعاده على أمر خطير يساوي وجودنا، ولسنا بمتنازلين عن معنى هذا التعاقد وفلسفته وأسسه لأي شيء في العالم.

الأمين الدكتور عاطف قبرصي محاضرًا في الندوة الثقافية المركزية

التحديات الاقتصادية للتنمية في سورية والعالم العربي

لماذا أخفقت سياسات التنمية العربية؟

حلَّ الأمين البروفسور عاطف قبرصي في الحادي عشر من تشرين الثاني الماضي ضيفًا على الندوة الثقافية المركزية، حيث ألقى محاضرةً قيّمةً فصّل فيها العوامل والتأثيرات الناتجة عن الأزمات والمشاكل والسياسية والنظم الاقتصادية في سورية والعالم العربي، في ظل غياب التخطيط والتنظيم الاقتصادي النموذجي.

فيما يلي نص المحاضرة التي قدّمها الأمين قبرصي.

لابد من الإشارة الى انه لا يوجد نموذج موحد للتنمية الاقتصادية العربية ويعود ذلك الى اختلاف طبيعة وظروف كل بلد ووتائر النمو والمصادر الطبيعية والبشرية والتكنلوجية المتاحة ومستويات كفاءة التعليم لكل منها، إضافة الى اختلاف الأهداف التنموية لكل منها ومتطلباتها والتحديات التي واجهها القائمون على إدارة هذه الاقتصادات وتوجهات الأنظمة السياسية فيها. ونهدف هنا الى عرض موجز لأهم خصائص نموذج التنمية الاقتصادية الذي كان سائدا في العديد من الدول العربية خلال النصف قرن الماضي (1970-2020) والأثار التي أفرزتها التطورات التقنية والمعرفية العالمية على النماذج الناجحة للتنمية الاقتصادية (New Growth Theory) في عدد من الدول المتقدمة والنامية، ومحاولة الإضاءة على اهم خصائص النظرية الحديثة للتنمية.

ونسعى في هذه الندوة الى تحديد عدد من العناصر والإجراءات العملية الممكن الاستناد إليها في تصحيح المسار الحالي للتنمية الاقتصادية للبلدان العربية بهدف استدامتها وتحسين كفاءة نتائجها المستقبلية.

تشخيص نتائج التنمية الاقتصادية في الهلال الخصيب

لوضع تقييم لنموذج التنمية الاقتصادية العربية للمدة (1967-2020)، لابد أولا من استعراض وتحديد مكونات ومخرجات والسمات الأساسية والمفصلية للنماذج التنموية التي طبقتها عدد من البلدان العربية وتحديد السمات الأساسية والمفصلية لها، وتحديد جوانب قصورها والتشوهات التي نتجت عنها وحالت دون تحقيق التنمية المستدامة والشاملة واهم جوانب هي:

أولا: الاعتماد الكبير على الموارد الطبيعية وخاصة الناضبة منها كالنفط والغاز والفوسفات وغيرها وتصديرها الى الأسواق العالمية بدلا من تصنيعها لرفع قيمتها المضافة.

ثانيا: إن مصدرين طبيعيين وأساسيين، هما النفط والماء حددا المسار والأداء والإمكانيات والمشاكل الاقتصادية والاستراتيجية للمنطقة العربية باسرها، النفط بوفرته أسس لاعتماد مفرط وأحادي على هذا المصدر والماء بندرته أسس لانكشاف خطير للأمن الغذاء العربي وحيث إن النفط والماء لا يختلطان إلا عند العرب بحيث إن عددا من الدول العربية تؤمن اليوم حاجتها من الماء عبر التحلية باستعمال النفط والغاز وهما من الطاقات الناضبة، بدلا من الاعتماد على مصادر الطاقة المتجددة.

ثالثا: استفراد الدولة بالعملية التنموية وإقصاء شرائح واسعة من المجتمع وتحجيم مشاركتها فيها مما حرم التنمية العربية من عدد كبير من الطاقات البشرية المؤهلة والمؤسسات غير الحكومية التي كان بالإمكان الاستفادة منها.

رابعا: تدني نسبة مخصصات الاستثمار في قطاعات الزراعة والصناعة والتعليم والمعرفة والتكنلوجيا وتكثيف الاستثمار في البنية التحتية غير المرتبطة بالإنتاج أو برفاهية وإنتاجية الاقتصاد والمجتمع.

خامسا: ارتفاع نسب الصادرات من الرأسمال الطبيعي وتدني نسبة الصادرات الصناعية والزراعية والمعرفية والتكنلوجية.

سادسا: ارتفاع معدلات البطالة وخاصة بين الشباب والإناث والذي يقابله ارتفاع نسب العمالة الأجنبية لنفس البلدان، الذي نتج عن نقل التكنلوجيا الرأسمالية التي لا تتماشى مع توفر عوامل الإنتاج الوطنية، وعدم موائمة مخرجات الأنظمة التعليمية لاحتياجات سوق العمل من الكوادر التقنية والفنية وفي الوقت الذي تعاني العديد من البلدان العربية من ارتفاع نسبة العمالة الأجنبية الوافدة وغير الماهرة.

سابعا: محدودية التعاون والتبادل الإقليمي وارتفاع حصص الواردات في الاستهلاك والاستثمار الوطني والانكشاف الكبير للاقتصادات الوطنية على الأسواق العالمية.

ثامنا: ضعف أجهزة الإدارة والحوكمة في اغلب القطاعات الرئيسة وتفشي الفساد فيها.

تاسعا: عانت العديد من الدول العربية خلال النصف القرن الماضي من عدم الاستقرار السياسي ومواجهة حروب لا مبرر لها، والخضوع الممنهج للأحلاف الأجنبية والوصاية الخارجية ودون مراعات للمصالح الوطنية، مما أدى الى عدم الاستقرار الأمني وهجرة العديد من الكفاءات الوطنية الأساسية لبناء تنمية اقتصادية وطنية.

عودة إلى الرئيسية

عاشـــرا: غياب القرار والمصـــلحة الوطنية في اعتماد التنمية المســـتقلة المعتمدة على النفس والاســـتفادة من بعض التجارب الناجحة في دول مرت بظروف مماثلة في أســـيا وأميركا الجنوبية (كما في ســـنغافورا وماليزيا وكوريا الجنوبية والبرازيل) بدلا من الاعتماد على تجارب نظم اللبرالية الجديدة الحاكمة.

حادي عشـــر: تعاملت اغلب البلدان العربية مع التكنلوجيا باعتبارها ســـلعة تســـتورد ودون الاهتمام بتجذيرها وتطويعها لجعلها أكثر ملائمة للمتطلبات والاحتياجات الوطنية.

إن مستقبل الاقتصاد العربي في القرن الجديد سيعتمد بالتالي على قدرته في التعامل مع المشـــاكل البنيوية وعلى تنويع وتوســـيع اعتماده على مصـــادر الدخل المســـتدامة. كما ســـيعتمد بشـــكل أســـاســـي على قدرة العرب في توقع وتســـخير التغيير العالمي وتحضـــير أنفســـهم للإمســـاك بالفرص الجديدة التي يوفرها "اقتصاد المعرفة" والمعلومات، وبالتالي سيعتمد كل ذلك على مدى قدرة العرب في إحداث نشـــاط مشـــترك وهادف لمواجهة هذه التحديات وكيفية اســـتجابة حكوماتهم وشـــركاتهم ومســـتثمريهم وعمالهم ومجتمعاتهم للتحديات التي يواجهونها. كما ســـيتوقف على قدرة العرب على تطوير نموذج تنموي جديد يتماشى مع ثقافتهم وتاريخهم واستهدافاتهم واستقلاليتهم وقدراتهم على التكيف مع التحولات الجديدة في كافة المجالات في العالم المحيط بهم، مع ضـــرورة الإلمام بأهم التطورات النظرية والعلمية في علم الاقتصاد والتنمية.

إن المحور الأســـاســـي لهذه الورقة ســـهل للغاية: يحتاج العرب إلى ســـياســـة اقتصـــادية واجتماعية مشـــتركة ومتعاونة ومبتكرة كجزء من برنامج عمل اقتصادي واجتماعي شامل للقرن الحالي، باستراتيجية تعكس جهدًا مدروسًا ومســـتدامًا لجعل الاقتصـــاد العربي أكثر تنافســـية عبر انتقال منظم إلى الاقتصـــاد الحديث بغية اكتســـاب المعرفة والمحافظة على الموارد الطبيعية والتقليل من الهوة الرقمية المتســـعة في المعلومات والمعرفة أو إزالتها. لا يتناول هذا الجهد وضـــع مخططات موســـعة للاقتصـــاد، ولا يتناول إقامة برامج حكومية مكلفة أو أحلام وبدع غير مضمونة. بل يتضمن توفير رؤى واستراتيجية للعمل تسمح لكافة عناصر المجتمع للعمل معًا بشكل واقعي، كشركاء لتحقيق أهداف معقولة وتراكمية. إن المشاريع والبرامج الحكومية الكبيرة وغير المنســـقة لم تأت بالنتائج المرتقبة في المنطقة العربية، وفيما كانت بعض هذه المخططات والمشـــاريع الضـــخمة ضـــرورية في المراحل الأولى من التنمية العربية المستدامة، فإنها أصبحت محدودة الفائدة ومكلفة في الوقت الحاضـــر. إن التنمية الاقتصـــادية العربية المســـتدامة هي عملية معقدة جدًا ولا يمكن بالتالي لخطة أو قطاع واحد الانفراد للقيام بها.

وبناء على ما تقدم تبرز الحاجة إلى إزالة عدد من المعوقات أمام تنمية الاقتصاديات العربية بالاستناد الى عوامل رئيسية أهمها:

أ- تشهد البيئة الاقتصادية العالمية تغيرات مستمرة، وهذه التغيرات يجب أن يتم توقعها والاستعداد لها مسبقًا.

ب- إن عناصر الإدراك ـــ أي المعرفة والخبرة إضافة الى الموارد المادية والطبيعية، تتضـــافر في تحديد إنتاجية المجتمع وتنافسيته واســـتمراريته. ولا بد لتلازم كل هذه العناصـــر مجتمعة في آن واحد.

ج- على الاقتصـــاد العربي تجاوز بعض المشـــاكل البنيوية الخطيرة (التي سبق ذكرها) وبناء مصادر دخل مستدامة.

د- ضـــرورة خلق أفضـــليات تنافســـية حديثة خاصـــة في الاقتصـــاد العربي.

ه- إشـــراك جميع قطاعات المجتمع في الميادين الاســـتراتيجية للمعرفة والتنمية.

و- تركيز التنمية المســـتدامة على **التنمية البشـــرية والاجتماعية،** باعتبارها المدخل إلى الاقتصـــاد الحديث الموجه والمنظم، وتحســـين القدرات التحولية للمجتمع والدولة عبر اســـتراتيجيات ونشاطات عربية مشتركة.

ز- بناء الكوادر البشرية المؤهلة لإدارة الاقتصاد ووفق خطط عملية أثبتت نجاحها بالتطبيق.

ح- تشـــجيع الابتكار والإبداع والبحث العلمي وتحرير الإنســـان العربي من جميع المعوقات التي تعترض قيامه بذلك.

1- التنمية الاقتصادية العربية في ظل التطور المعرفي والتكنلوجي

يعد التقدم المعرفي والتكنلوجي الســـريع من اهم العوامل التي أثرت على النماذج التنموية للاقتصـــادات العالمية، فعلى الرغم من تضـــاعف حجم الاقتصاد الأميركي عشرين مرة عما كان عليه في مطلع الـــ 1900، إلا أن ما يدعو إلى الدهشـــة أن وزن إنتاجه الإجمالي بقي على حاله أو حتى تراجع. لقد انتقلت بنية الإنتاج من الســـلع إلى الخدمات، من الموارد إلى المعرفة، من الاهتمام بقطع الكمبيوتر إلى برامجه. وقد ســـاهمت التغيرات في البنية المؤســـساتية والتنظيمية للاقتصـــاد والمجتمع على حد ســـواء في تســـهيل انتقال الاقتصـــاد من اقتصـــاد ميكانيكي إلى اقتصـــاد رقمي. وفي مختلف النواحي، فإن نشأة الاقتصاد الرقمي الحديث واقتصاد البرمجة عديم الوزن يستندان إلى نموذج جديد للاقتصاد يختلف تمامًا عن نموذج "فورد" السابق.

ومن بين أكثر الاختلافات بروزًا بين الاقتصـــاد "القديم" و"الجديد" نجد ما يلي:

أ- فيما اعتمد الاقتصاد القديم على نظام الموارد المستخدمة للطاقة، فإن الاقتصاد الحديث يعتمد على استخدام المعرفة.

ب- في النظام القديم، كان التصـــميم والهندســـة يتمّان في مكاتب التصميم، بينما يتم ذلك حاليًا من خلال برامج تصميم تعتمد على الكمبيوتر.

ج- تم استبدال التصميم المتتالي والإنتاج بالهندسة المتزامنة.

د- أعطى الإنتاج الجماعي القياســـي مكانه للإنتاج المصـــنوع وفقًا لمواصـــفات محددة يختارها المســـتهلك (**Customized Production**) مـــكـــان الإنـــتـــاج الـــمـــكـــثـــف (**Mass Production**).

ه- فقد نظام الإنتاج القديم، المعتمد على خليط ســـلع ثابت، أهميته أمام خليط السلع المتغيرة سريعًا للاقتصاد الحديث.

و- تم استبدال الأدوات والتجهيزات المتخصصة بأنظمة إنتاج مرنة.

ز- تم استبدال المكننة بالتصنيف، والاستثمار في القطاعات التي كانت تسجل تراجعًا، باستثمارات في شبكات ومجموعات من الشركات العاملة ضمن الاقتصاد الحديث.

ح- تم تحويل البنى الهرمية (العمودية) إلى بنى أفقية.

ط- تم استبدال السلع ذات الخدمات بخدمات ذات سلع.

ي- تحولت المركزية إلى ذكاء موزع، والمهارات المتخصصة إلى مهارات متعددة والتخطيط إلى رؤى.

ك- أعطت المعلومات المكثفة مكانها للمعرفة والأنظمة المبتكرة.

إن انعكاسات هذه التطورات والتقدم العلمي والتقني على نماذج التنمية الاقتصادية كانت متعددة ومهمة. وتتضمن:

أولا: في الاقتصادات المتقدمة وفي طور التقدم، تنتشر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في كل مكان، في المنزل، المكتب، الجامع، الكنيسة والسيارة. إن مدى انتشارها مذهل، وهي تؤثر في سائر نواحي الحياة. فقد أثرت على وظائف العمال في الدرجات العليا والدنيا على حد سواء. كما حلت محل الوظائف في صناعة الخدمات حيث دخلت معظم الوظائف الجديدة خلال العقود الخمسة السابقة وحلت وسيلة التعرف الصوتي مكان السكرتيرات، ومراكز سحب النقود الآلية مكان موظفي المصارف، وآلات المزج الموسيقي أصبحت تقوم بعمل الموسيقيين. وبالرغم من أن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وفرت العديد من فرص العمل إلا أنها قضت على العديد منها.

ثانيًا :إن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات هي مدخلات وسلع نهائية في نفس الوقت، بعكس الكهرباء والطاقة البخارية، فإن الحواسيب والهواتف النقالة هي سلع نهائية بحد ذاتها.

ثالثا: شهدت أسعار تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تراجعات متقلبة. فتراجعت أسعار معظم سلع تكنولوجيا المعلومات والاتصال بنسب عالية، وفي الوقت ذاته ارتفعت معدلات استخدام البرمجيات والتطبيقات بوتائر عالية جدا.

رابعًا: جعلت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الخدمات أكثر قابلية للتجارة عبر إزالة الاحتكاك المباشر بين المنتجين والمستهلكين. وأصبح المتنافسون على بعد أقل من ثانية بالمقارنة مع عشرات آلاف الأميال في السابق.

خامسا: جعلت تكنولوجيا المعلومات الإنتاج والمنتجين أكثر حرية عبر التصنيع المرن، التصميم المتزامن، والشبكات المتناسقة من أصحاب القرار. وأصبح بالإمكان إنتاج أي منتج حاليًا في أي مكان أو زمان. هذا الفصل في عمليات الإنتاج زاد الفرص المتاحة أمام الدول النامية للوصول إلى رأس المال الأجنبي، التكنولوجيا وشبكات التسويق وساعد العديد منهم على أخذ حصة من سلاسل القيم العالمية.

سادسا: حررّت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، الإنتاج من المكان والموارد الطبيعية. وأصبحت تحتاج إلى موارد أقل واستبدلت بالإنتاج غير المكثف للموارد والاستهلاك. وذلك هددّ وجود واستمرارية العديد من الاقتصادات المعتمدة على الموارد الطبيعية.

سابعًا: ساهمت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في رفع كثافة المعرفة في الإنتاج وقيمة المهارات، كذلك في التعليم والخبرات. هناك نوعان من المعرفة التي ساهمت هذه التكنولوجيا في توسيعها. **الأولى:** هي المعرفة بالتكنولوجيا، المعروفة ببساطة بالمهارة والخبرة. من الأمثلة على ذلك: تحديد النسل، التغذية، هندسة البرمجيات، المحاسبة. و**الثانية** هي المعرفة بالمزايا، كنوعية المنتج، مصداقية المدين، التاريخ الطبي لمقدم طلب التأمين ومقدار إنتاجية العامل.

ثامنًا: سهلت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات إزالة الوساطة ومن خلال ذلك أزالت العديد من الوسطاء خاصة هؤلاء العاملين في المناصب المتوسطة في الإدارة، والموظفين ومندوبي المبيعات.

تاسعًا: ساهمت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في تسريع عمليات الابتكار وتصغير التصاميم وإعادة التصميم إلى مستويات حيث نمت الإنتاجية نموا سريعا لم تشهده الاقتصادات التقليدية.

عاشرًا: ساهمت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بشكل واضح في تراجع القوة التفاوضية للعالم الثالث أمام العالم الصناعي. فالعالمية التي استخدمت سابقًا كسلاح الدعاية لحركة العمال ضد الحكومات والمتّاجرة بالحرب والرأسمالية، أصبحت الآن تعمل للجانب الآخر.

إن الانعكاسات المذكورة أعلاه هي جزء فقط من التغيرات الاقتصادية الكبيرة التي حصلت مؤخرًا في العالم. هناك عدد من الآثار المرتبطة التي تتكيف مع العوامل التكنولوجية لكنها تتطلب دعمًا إضافيًا من القطاعات الأخرى في المجتمع والاقتصاد. إن التكنولوجيا وحدها لا يمكن أن تؤدي إلى التغيير المطلوب. وبنفس الأهمية والضرورة، هناك التغييرات المؤسساتية، وبناء البنى التحتية الضرورية، فضلًا عن النهج السياسي والإصلاح الإداري. وبالإضافة إلى ذلك وبذات أهمية، هناك البيئة الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة التي تسمح بمشاركة أوسع للشعب وقوة أكبر لاجتياز الحواجز نحو الإبداع والوصول إلى الفرص والموارد.

نموذج مقترح للاقتصاد المعرفي العربي

ساهمت سلسلة جديدة من المؤسسات والقيم والنظريات الاقتصادية، كذلك أنظمة الإدارة وتقنياتها في تشكيل نموذج اقتصادي جديد مرتكز على المعرفة والابتكار. وفي خضم هذه التغييرات، نجد قدرة الاقتصاد الجديد على تطوير وتدريب وتوسيع حجم اليد العاملة، ونجد المهارات التنظيمية المجسدة في رأس المال البشري والاجتماعي الذي يستطيع أن يقود ويدير وينسّق ويبتكر النجاح في هذا العالم المتقلب والسريع التغيّر. إن التغيير لا يعني تبني التقنيات وشراء التكنولوجيا المناسبة والآلات أو حتى الحاسوب، بل يشمل، أولًا، بناء المؤسسات **والقيام بنشاطات إعادة الهيكلة وإصلاح سائر البنى "الفوردية" القديمة**. فالتغييرات المطلوبة ضخمة وجذرية ولا يمكن أن تحصل تدريجيًا ولا يمكن أن تخضع تمامًا لقوى السوق والقطاع الخاص. إن الدول التي تم التحول فيها إلى الاقتصاد المعرفي بشكل ناجح، أكانت من الدول النامية أو المتقدمة، **اعتمدت على قوة الدولة التغييرية في توجيه وحماية هذا التغيير، اي ان يتم تبني عملية تجذير التكنولوجيا**

المستقدمة وبما يؤدي الى تطويعها لجعلها أكثر ملائمة لاحتياجات المجتمع الوطني وأكثر ملائمة لتوفر عوامل الإنتاج الوطنية.

إن الدول التي تبنت هذا النموذج، قامت فيها الدولة بتشكيل شراكات استراتيجية مع القطاع الخاص والمؤسسات الأهلية ذات العلاقة، ومن خلال تعاونهما استطاع تجاوز الصعاب وتوفير الوقت المستخدم وتحقيق الأرباح العالية. كما تمت من خلال سياق أوسع من تلك المطبقة في الدول الصغيرة والمجزأة. وقد نشأت في هذا الإطار كتل تجارية ساهمت في تعزيز التوجه نحو العولمة. وساهم الدخول في **اتفاقيات إقليمية** في تخفيف أثر الانتقال إلى الإطار العالمي للعديد من التجارب الناجحة إن لم نقل معظمها، وهذه من السمات التي يجدر بالاقتصادات العربية الاقتداء بها.

ركزت النظريات الاقتصادية الكلاسيكية والنيو كلاسيكية للنمو على كون رأس المال العيني والمدخرات، هي المحددات الأساسية للنمو، تراجعت أهميتها أمام نظرية شومبتر (Schumpeter) حول الريادة، ونظريات رومر حول النمو الداخلي (Endogenous Growth Theory). هناك على الأقل 11 صفة تميّز ما كتب حول التكنولوجيا ونظريات النمو الاقتصادي الحديثة، التي أشارت الى أن للحصول والمحافظة على الأفضلية التنافسية، يجب أن يكون الابتكار في صلب استراتيجية الدولة أو الشركة. ليس هناك "مروحية" تسقط المعرفة الجديدة أو الابتكارات من السماء في ظل غياب الجهود المدروسة للمجتمعات والأشخاص لإيجاد منتجات جديدة أو تقنيات أو عمليات أو مؤسسات وأسواق جديدة. وبعكس النظريات النيو كلاسيكية القديمة، فإن هذا يعطي إطارًا واضحًا لدور الحكومات والمؤسسات والشركات والرياديين. وهذه الصفات هي:

أ- في النموذج النيو كلاسيكي وفي غياب أي نمو تكنولوجي خارجي، تبلغ نسبة النمو الثابتة لإنتاج العامل صفر. ويمكن لزيادة نسبة الادخار أن يكون لها أثر مؤقت على نسبة نمو الاقتصاد الثابتة لرأس المال الى للعامل، والإنتاج الى لعامل، والاستهلاك الى العامل. وضمن الظروف ذاتها، فإن نموذج النمو الداخلي يتوقع نموًا إيجابيًا ثابتًا في معدلات النمو بالنسبة للعامل. كذلك، مع النمو الداخلي فإن معدلات النمو هذه، تصبح أكثر ارتفاعًا كلما ارتفعت نسبة الادخار في الاقتصاد.

ب- في نموذج النمو النيو كلاسيكي، يحصل النمو الثابت والإيجابي لرأس مال العامل، وإنتاج العامل، واستهلاك العامل فقط بمعدل التغيير التكنولوجي الخارجي. بينما نموذج النمو الداخلي، يمكن حصول النمو الثابت حتى وان لم يكن هناك أي نمو تكنولوجي خارجي.

ج- يشعر المستهلكون بارتياح أكبر عندما يصادفون سلعًا متنوعة في السوق. وهم ليسوا مستهلكين سلبيين وبالتالي يهتمون بالأسعار والنوعية. لذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار الأسعار والنوعية والتنوع عند محاولة تفسير حصة شركة ما أو دولة في السوق. أساسًا المعرفة الحديثة هي وسيلة للاستمرار في خلق الانقسام الاحتكاري أو المؤيد للاحتكار.

د- تم استبدال عملية التوازن التنافسي والسلس بمنافسة الأداء الاستراتيجي بين الشركات نفسها، أو بعلاقة ديناميكية بين الشركات والمستهلكين. عند دراسة هذه الظاهرة، يعمل الباحثون على مجموعة واسعة من الأدوات التحليلية، بما فيها نظرية المباراة والتظاهر الميكرو ديناميكي ونماذج النشوء ونماذج النمو الحديث لإطلاق شكل جديد من المعرفة الاقتصادية.

ه- تاريخيًا، في نظرية النمو النيو كلاسيكي، ساعد التغيير التكنولوجي في نقل وظيفة الإنتاج الكامل وأثّره على "انحياز" الابتكار بين رأس المال والعمالة. لكن في التحليل المعاصر، الابتكارات (أو المعرفة الحديثة) تنطلق أساسًا محليًا وتحسّن إنتاجية ورأس مال العامل فقط عند الهامش الإنتاجي للعامل. هذا هو مصدر فكرة أن الشركات يمكنها فقط دراسة سبل محددة ضمن تصميم أو نموذج تكنولوجي معيّن.

و- بالرغم من ذلك، فإن انتشار بعض التكنولوجيات الشاملة يتم من ابتكار إلى آخر، من القطاع المنتج للتكنولوجيا إلى قطاعات أخرى مستخدمة لها. في هذا الإطار تبدأ بعض الابتكارات الرئيسية في الاعتماد على بعضها حيث يفترض تطورها المسبق تشابهًا وتكاملًا. فالشبكات التي تريد العودة إلى القياس المرتبطة بتجميع الابتكارات والاستثمارات المعلومات والمعرفة هي أساس استراتيجية زيادة المعرفة.

ز- إن الابتكار هو ظاهرة كثيرة التنوع. يتم حاليًا تطوير نماذج جديدة تتضمن العناصر التالية: توسع البحوث والتطوير في النظريات النيو كلاسيكية الحديثة (رومر، 1986)، دور التعليم والتدريب خلال العمل كسلع عامة لنماذج جديدة (لوكاس، 1988)، أثر النقل والبنى التحتية للاتصالات عن بعد، أو التعليم عن طريق التطبيق، التواصل أو الاستخدام حسب نظرية كينيث آرو (1962). كل هذه تم اختيارها بالتعاقب على يد مختلف الكتّاب. والمثير للانتباه، أن ضمن أي عنصر يتم اختياره، تكون آليات العمل والموضوعية تتشابه.

ح- إن الانتقال من نموذج الميكرو إلى الماكرو يتضمن تركيزًا أكبر على الخصائص الخاصة بالسلع وعلى نوعياتها الحقيقية أو الحسية وعدد النماذج والاختلافات بين نفس المنتج. وهذا التنوع في السلع والتطور المستمر الذي تشهده يعود إلى المنافسة غير الصحية. وعند محاولة الاستنتاج على مستوى الاقتصاد الكلي، فإن هذا الإطار يفسر بشكل أفضل العناصر الرئيسية في التنافسية الوطنية. إن حقيقة العمليات والافتراضات، عند إعطائها الصفة الرسمية، تجلب لغة موحدة بين الاقتصاديين وأصحاب المهن والنظريات والباحثين.

ط- ونتيجة لذلك، تصبح المعرفة الحديثة داخلية النمو ضمن كل دولة وتتنافس سائر الشركات على ذات الأسواق المحلية والخارجية. بالتالي، يرتبط النمو النسبي للاقتصادات المفتوحة بالقدرة على الابتكار بنجاح وأخذ حصص من السوق بين مستهلكين متماثلين. وبعكس ذلك، كانت معظم نماذج النيو كلاسيكية تدرس الاقتصادات المنغلقة، التي تتميز بتغيير تكنولوجي خارجي.

ي- استنادًا إلى النظرية النيو كلاسيكية، يُنظر إلى الاقتصاد كأنه يتحرك دائمًا على طريق النمو في حال تنكمش سائر المتغيرات بسبب الإنتاجية كاملة العناصر. في المقابل، وتعتبر النماذج الجديدة ديناميكية ومتسلسلة، كون الاقتصاد لا يعمل ضمن توازنه "المارشاللي" الكامل والطويل الأمد، بل يتحرك من توازن مؤقت إلى آخر، بسبب تجديد المعرفة الناتج عن عملية المنافسة نفسها.

ك- أخيرًا وليس آخرًا، لا يوجد طريق وحيد للنمو المتوازن: فاختلافات صغيرة في الخصائص التي تمثل الأداء الشخصي قد تطلق أنماط تطور مختلفة. وفي بعض الحالات، يتم دفع ثمن النمو المتسارع المحقق في إحدى الدول عن طريق التراجع في دولة أخرى. وهذا يعتبر ضد نظرية التجارة الدولية التقليدية.

هناك وجهة نظر في النظرية الجديدة للنمو تعتبر أن الشركات وعناصر الإنتاج هما عاملان هامان في إحداث المعرفة الحديثة. ويتم ذلك عبر التدخل في عملية الابتكار والتدخل الاستراتيجي في الاقتصادات المتقدمة باستمرار تفاعل الأسواق وغالبًا على أساس استراتيجية وضعت سابقًا. إذ تتطور المعرفة بطريقة هيكلية ولا تصبح بالتالي كل إمكانية تكنولوجية احتمالًا اقتصاديًا.

وهناك وجهة نظر أخرى تعتبر أن الشركات تشكّل جزءًا من الإطار المؤسساتي الواسع لمجتمع ما، وهذا الإطار الواسع يلعب دورًا أساسيًا في تفسير الفروقات في الأداء الاقتصادي بين الدول عبر الزمن. وأكثر فأكثر، يقوم البحث حول الأسباب التي تجعل أداء الشركات مختلفًا لناحية الابتكار ويقوم حول الفروقات في الإطار المؤسساتي الوطني المتكيف.

ويشير الدليل العملي الحديث حول أثر المعرفة والعجز التكنولوجي وعوامل أخرى على الفروقات في النمو الاقتصادي. أن مجالات "اللحاق بالآخرين" موجودة، لكن تتحقق فقط من قبل الدول التي لديها "قدرة اجتماعية". على سبيل المثال، تلك الدول التي تستطيع الاستفادة من الاستخدام الأمثل للموارد الضرورية (الاستثمارات، التعليم، البحوث والتنمية، إلخ). كما يتضح من البحث العملي أن الاستثمارات في البنى التحتية، البحوث والتنمية والتعليم والإبداع يجب أن ينظر إليها كمكملات وليس بدائل للنمو الاقتصادي. فالنظريات القديمة للنمو تتعامل بالتكنولوجيات كـ "مخططات" أو "تصاميم" يمكن المتاجرة بها في الأسواق. بينما تتعامل النظريات الحديثة للنمو مع هذه التكنولوجيات بأنها جزء لا يتجزأ من المؤسسة، لكونها ضمنية ومتراكمة في أسلوبها، ومتأثرة بالتفاعل بين الشركات والبيئة التي تعمل فيها، ومتمركزة جغرافيًا بحيث تؤدي إلى نشوء "تكنولوجيا وطنية" و"أنظمة معرفة وطنية"، وبالتالي لاستراتيجيات وطنية لزيادة الإنتاجية والتنافسية من خلال خلق المعرفة والابتكار.

إن الاعتقاد الشائع الآن هو أن القطاع الخاص في الدول الصناعية المتقدمة يشكل عنصرًا أساسيًا في التحول الاقتصادي، وذلك استنادًا إلى جان بابتيست ساي الذي ابتكر مقولة: **"رجال الأعمال يحوّلون الموارد الاقتصادية من منطقة إنتاجية منخفضة إلى منطقة إنتاجية مرتفعة وكثيرة العائدات"**. كذلك تم تحليل دور رجال الأعمال في التنمية الاقتصادية بشكل معمّق وفعال من قبل جوزف شومبتر الذي أكد أن عدم التوازن الديناميكي الذي يجلبه رجال الأعمال بدل التوازن والكمال، هو "معيار" الاقتصاد الفعال والصحي. فقطاع الأعمال يرتكز على نظرية اقتصاد ومجتمع يرى التغيير كشيء عادي ويعتبر أن الدور الرئيسي في الاقتصاد هو في القيام بشيء مختلف بدل القيام بشكل أفضل بما كان يتم في السابق. إن دور رجال الأعمال، وفق شومبيتر، هو إصلاح أو تحديث نموذج الإنتاج. إنهم المبتكرون الذين يغيّرون الوضع الراهن (التوازن العام) ويقودون عملية **"التغيير الخلاّق"** الذي هو أساس التنمية الاقتصادية الرأسمالية. وعن طريق إحداث ابتكارات في السوق، يعمل رجال الأعمال على **تغيير الأسواق** الحالية بشكل "خلاّق"، وإعادة توزيع الثروات الحالية وخلق سلع وخدمات جديدة. **لكن الوقائع أثبتت انه لايمكن للقطاع الخاص والرياديين أن يعملوا بمفردهم للصالح العام والتوزيع العادل للثروات دون تدخل الدولة وإشرافها على هذه العملية لتصويبها في حالة انحرافها، فدور الدولة في التنمية الاقتصادية محوريا للوصول الى النتائج المرجوة ولا يمكن التخلي عن هذا الدور لأن ذلك سيؤدي الى تنمية اقتصادية مشوهة.**

نماذج استراتيجيات التحول البديلة للاقتصاد الحديث

لم يعد التحول إلى الاقتصاد العالمي خيارًا وحيدًا، فمن حسن الحظ أن لدى الاقتصادات عددًا من الخيارات والبدائل التي يمكن تبنيها لجعل التحول أكثر مرونةً وتجاوبًا مع الظروف والاستهدافات. وفيما يدرس العرب خياراتهم للتحول إلى الاقتصاد المعرفي الحديث، يبدو أن هناك ثلاثة أنظمة أساسية. وهي **نظام الابتكار الوطني** الذي تبنته اليابان وماليزيا وغيرها من دول جنوب شرق آسيا، **ونظام التحول القطاعي** الذي تميزت به تجربة البرازيل، **ونظام التحول في قطاع الأعمال** الذي تبنته الولايات المتحدة.

فيما تقدّم هذه الخيارات وكأنها أنظمة حصرية، إلا أن الطرق التي تطورت فيها تعتبر بعيدة كل البعد عن ذلك. كل خيار يصف نظامًا لديه جزء هام من الشبه بالأنظمة الأخرى، ولكن ما يميز الواحد عن الآخر هو الخصائص الأكثر بروزًا والأكثر خطورة التي تختص به.

إن الأنظمة الوطنية للابتكار هي أنظمة معقدة، تعكس خصوصيات (تاريخ، ثقافات ومؤسسات) العديد من الدول التي تبنتها ورعتها. إن هذه الأنظمة الوطنية مهمة بسبب قدرتها الفعلية في إلقاء الضوء على طبيعة التنافسية من ناحية وبسبب قدراتها كوسيلة للتحليل المقارن من ناحية أخرى. ومن المنطلق الأخير، فإن فكرة الأنظمة الوطنية طرحت لقدرتها على المساعدة في تفسير مختلف التجارب الوطنية للتنمية الاقتصادية. إن فكرة تدفق المعرفة، وتحتاج أن تتدفق، بين الكيانات المنتجة للمعرفة إذا أرادت الدول أن تبقي على تنافسيتها، أدت إلى نشوء فكرة الأنظمة الوطنية للابتكار على مستوى عال من التكامل التحليلي. وهذه تتجذر في النتائج غير العملية لـ "نظريات النمو الحديثة" وتختلف من اقتصادات النمو النيو كلاسيكية القديمة وتمثل تحوّلًا نموذجيًا في التفكير والسياسات والإرشادات. هناك أنواع مختلفة من الأنظمة الوطنية للابتكار وبالتالي نوعيات مختلفة من التحولات إلى الاقتصاد الحديث. بعضها نجح والآخر لم يكن لديه الوقت لإثبات قيمته ومميزاته. إن الخيارات الكثيرة المتاحة تسمح للقادمين الجدد بتقييم خياراتهم والمميزات النسبية لمختلف الخيارات. إن عملية التقييم تدعم عبر بروز دراسات تجريبية غنية حول المميزات النسبية للخيارات المختلفة للتنمية الاقتصادية.

عودة إلى الرئيسية

هناك بعض التجارب النظرية، على سبيل المثال قام بها نلسون، وفريمان ولندوال ومجوسست وغيرهم، **حول طبيعة وخصائص الأنظمة الوطنية للابتكار**؛ لكن، ربما بسبب صعوبتها، فإن فكرة "نظام وطني للابتكار" بقيت حتى الآن بغالبيتها أكاديمية. ويرتكز الدافع الرئيسي وراء العمل الحالي على افتراض أن المزيد من البحوث والتطوير مطلوب ليصبح له دورًا في الأداء الوطني للابتكار. و"العناصر الإضافية" تتضمن الخليط الخاص من المؤسسات العاملة في بلد ما، وهناك إشارة إلى أن الاقتصادات الناجحة هي التي يكون فيها أداء النظام ككل أكبر من مجموع اداء المؤسسات الموجودة فيه. **وهي نتيجة طبيعية لتكامل وتناغم وانسجام هذه الأجزاء.**

تؤكد دراسة نماذج التنمية الوطنية للابتكار على التنوع الكبير في التدابير المؤسساتية ومدى تأثيرها على توزيع التكنولوجيات. على سبيل المثال، البحوث التي تقارن نماذج التنمية الوطنية للابتكار البريطانية واليابانية في تعاملها مع الصناعات نفسها تؤكد أن الفرق في التوجه كبير جدًا. في الأولى، يتضمن ترتيبات قانونية مع قليل من الاتفاقيات على مستوى عال، بينما في الأخير، يتضمن اتصالات مباشرة على مستويات مختلفة مع قليل من الترتيبات القانونية.

طريقة البريطانيين (اليد الطويلة) هي قصيرة الأمد وتتضمن القليل من التعاون التقني، بينما الطريقة اليابانية (الملزمة) تفتش عن الشراكات الطويلة الأمد مع مزيد من التعاون التقني (ساكو، 1992).

وكما أظهرت البحوث أهمية هذه الأنواع من الترتيبات في تعزيز الأداء الابتكاري الوطني، فقد أصبح شائعًا ضم هذه الترتيبات كخصائص لنوعية الأنظمة الوطنية للابتكار والمقترحة بالأصل من قبل لاندفال، وتتضمن القائمة لمثل هذه الخصائص والتي أصبحت واسعة نسبيًا ما يلي:

- علاقات المستخدم ـ المنتج
- شبكات التعاقد من الباطن
- شبكات العلوم ـ التكنولوجيا
- ترابط إنتاج البحوث والتطوير
- الهندسة العكسية
- المهارات والمعرفة الضمنية
- نظام الاستشارات والأسواق
- قدرات استيراد التكنولوجيا
- ارتباط أنظمة العلوم والتكنولوجيا مع البحوث والتطوير.

إن أهمية هذه الأمور والاعتبارات لأصحاب القرار العرب لا يمكن إغفالها. سنتجنب الغوص في المفروض وغير المفروض في سياسات التكنولوجيا العربية واستراتيجيات التحول حتى نعرّف بعمق أكبر تاريخ وانعكاسات أنظمة الابتكار الوطنية. فمع تراكم الدليل الحسي والتحليل حول **أهمية** البحوث والتطوير الصناعي وحول الابتكار في اليابان، الولايات المتحدة وأوروبا، يبدو واضحًا أن نجاح الابتكارات ومدى توزيعها والفوائد الإنتاجية المرتبطة بها اعتمدت على مجموعة واسعة من التأثيرات الأخرى بالإضافة إلى البحوث والتطوير الرسمية. ومنها ما يلي:

الابتكارات المتزايدة تأتي على يد مهندسي الإنتاج والتقنيين ومن المصانع وترتبط بأشكال مختلفة بالمؤسسات العاملة.

أ- تأتي التحسينات العديدة على المنتجات والخدمات من التفاعل مع السوق ومع الشركات المرتبطة، كتلك المتعاقدة من الباطن وموردي السلع والخدمات.

ب- تساهم البحوث والتطوير في الابتكار المتزايد ولكنه ليس كافيًا لتوليد وتوزيع الابتكار الراديكالي.

ج- العلاقات بين الشركات والارتباطات الخارجية مع نظام علمي ـ تكنولوجي متخصص وضيّق هي حاسمة، خاصة لنجاح الابتكار مع ابتكارات راديكالية.

د- إن المظاهر الشاملة للابتكار تؤثر بازدياد على تحديد معدل التوزيع وعائدات الإنتاجية المرتبطة معًا مع أية عملية توزيع محددة.

ه- إن نجاح أي ابتكار تقني محدد، كالإنسان الآلي يعتمد على تغييرات أخرى مرتبطة في أنظمة الإنتاج.

وتشير هذه المظاهر الشاملة للابتكار إلى وجود وأهمية الاختلافات في أداء أنظمة الابتكار الوطنية. على سبيل المثال، حلّل فريمان الاختلافات الواضحة بين أنظمة الابتكار الوطنية المتبعة في اليابان ودول الاتحاد السوفياتي السابق. وكان أكثر الاختلافات بروزًا، بالطبع، **هو التركيز** الكبير للبحوث والتطوير في الاتحاد السوفياتي على التطبيقات في القوات المسلحة والفضاء مع قليل من الاهتمام المباشر أو غير المباشر بالاقتصاد المدني. وتم التأكد الآن أن الرغبة في اللحاق بالولايات المتحدة في السباق على التسلح أدى إلى توجيه ثلاثة أرباع البحوث والتطوير السوفياتي المكثف على الدفاع وبحوث الفضاء. وهذا ساهم بحوالي 3 % من الناتج المحلي الوطني، بحيث بقي (1%) فقط للبحوث والتطوير المدني. هذه النسبة كانت أقل من نصف المعدل في معظم دول أوروبا الغربية وأقل أيضًا من المعدل الياباني.

لهذا يخلص فريمان وغيره إلى أن الاتحاد السوفياتي كان بإمكانه **أن يكون أكثر إنتاجية لو كانت العلاقات الاجتماعية والتقنية والاقتصادية في النظام أقوى**، كذلك الحوافز التي تكافئ الأداء الفعال. لقد تم تطوير النظام السوفياتي على أساس مؤسسات بحوث مستقلة عن النظام الأكاديمي (للبحث النظري)، لكل قطاع صناعي (للبحث التطبيقي والتطوير) ولتصميم واستيراد التكنولوجيا (منظمة تصميم المشاريع). كانت العلاقات بين هذه المؤسسات ضعيفة، حيث كان المخططون يفضلون الحفاظ على ارتباطات عمودية ويهملون الارتباطات الأفقية. إن التركيز القوي والاستثنائي على تحقيق الحصص المحددة للإنتاج منعت الابتكار على مستوى المؤسسة كون المدراء يفضلون متابعة الاتجاهات السابقة ولا يشجعون التجارب والمبادرات الجديدة. لذا، فيما كان تداخل البحوث والتطوير والإنتاجية والتكنولوجيا هامًا على مستوى المؤسسة، السمة الأقوى في النظام الياباني، فإن ذلك كان السمة الأضعف للصناعات

السوفياتية باستثناء صناعة الطيران وقطاعات الدفاع الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، كانت علاقات المستخدم ـ المنتج التي هي بغاية الأهمية في العديد من الدول الصناعية، ضعيفة جدًا أو غير موجودة تقريبًا في العديد من مناطق الإنتاج في الاتحاد السوفياتي. أما لناحية التشابه بينهما، فالاثنين اهتما ولا يزالان بأنظمة التعليم مع نسب عالية من الشباب الملتحقين بالتعليم الثانوي وبتركيز أكبر على العلوم والتكنولوجيا. كذلك، فإن لدى الاثنين وسائل لإيجاد أهداف طويلة الأمد ومنظورًا اجتماعيًا للعلوم والتكنولوجيا. لكن فيما النظرة الطويلة الأمد لليابانيين وُلدت من عملية تفاعلية لم تقتصر فقط على وزارة التجارة الخارجية والصناعة وغيرها من المنظمات العامة، بل ضمت أيضًا قطاع الصناعة والجامعات، كانت العملية في الاتحاد السوفياتي محدودةً وسيطرت عليها متطلبات القطاع العسكري والفضاء.

لم يتوقف فريمان عند المقارنة بين اليابان والاتحاد السوفياتي، بل وسّع تحليله إلى مقارنة بين البرازيل والنمور الآسيوية الأربعة لإظهار تناقضات أخرى بين أنظمة الابتكار الوطنية، مستخدمًا كمثال الأنظمة الموجودة في أميركا اللاتينية عام 1980 وتلك الموجودة في النمور الآسيوية في شرق آسيا، وخاصة بين إثنين من الدول الصناعية الجديدة في الثمانينات: البرازيل وكوريا الجنوبية. ويناقش فريمان أن الدول الآسيوية بدأت عند مستوى منخفض من التصنيع خلال الخمسينات، بينما تم جمع دول آسيا الشرقية وأميركا اللاتينية معًا في الستينات والسبعينات مع مجموعة الدول الصناعية الجديدة حيث شهدت الثمانينات بروز تناقض حاد، فالناتج المحلي الوطني في دول آسيا الشرقية نما بمعدل (8%) سنويًا، فيما تراجع في دول أميركا اللاتينية، بما فيها البرازيل، إلى أقل من (2%) مما يعني في معظم الحالات تراجع الدخل الفردي. هناك بالطبع العديد من التفسيرات لهذا التناقض البارز. فبعض الدول الآسيوية أدخلت تغييرات اجتماعية جذرية أكبر، كاستصلاح الأراضي والتعليم العالي **وتحديد النسل (في الصين بالذات) متجاوزة تلك المطبقة في دول أميركا اللاتينية، وقد سهلت التغييرات الاجتماعية في هذا الوقت** التحول التقني والهيكلي. (فريمان، 1993).

يواجه العالم تحديات جديدة تفرزها التحولات المناخية وتعاظم آثارها السلبية على مسارات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ففي دراسة للأمم المتحدة وجدت أن (76%) من الكوارث كانت نتيجة التحولات المناخية، منها موجات الحرارة العالية والأمطار الثلجية والجفاف والأعاصير والانهيارات الأرضية، هذه الظواهر تفسر أن (45%) من أسباب الوفيات و(79%) من مجموع الخسارات الاقتصادية نتيجة هذه الكوارث. ان منطقتنا العربية معرضة لمثل هذه الكوارث. هناك دول معرضة أكثر من غيرها وتعمل على توقع هذه الكوارث وأعداد مستلزمات مواجهتها للحد من آثارها السلبية، كما يتطلب بذل مجهود خاص للانتقال من مجتمع اقتصاد يعتمد على الموارد الناضبة الى اقتصاد يعتمد موارد متجددة وتفتح إمكانيات جديدة لبناء اقتصاد تنافسي ووظائف مستحدثة تحتاجها عملية التحول الى الاقتصاد الأخضر وهو الأكثر قدرة على استدامة التنمية وتجنب الأخطار المستقبلية، وفي منطقتنا فان هذا الاقتصاد تدعمه ميزات تنافسية توصله لتطوير طاقات خضراء بالإمكان تصديرها الى مناطق أخرى، إذ إن هذه الدراسات أشارت الى أن الاستثمار في الطاقات يخلق (3) أضعاف الوظائف التي يخلقها استثمار نفس المبلغ في الطاقات الناضبة. وتقدر المنظمة الدولية للطاقة (IED) أن العالم سيخسر (5) مليون وظيفة من العاملين في مجال الوقود الأحفوري، بينما سيخلق (14) مليون وظيفة جديدة من استخدامات الطاقة الخضراء لغاية سنة (2030)، فالمغرب اليوم، وعلى سبيل المثال، يوفر (40%) من حاجته من الطاقة الكهربائية بواسطة الطاقة الشمسية، حيث إنشاء أكبر مجمع لإنتاج الطاقة الكهربائية من الألواح الشمسية في نوروزرات، ويحتوي على ما مساحته (3000) هكتار أي ما يعادل (19) كم مربع، وسيوفر طاقات تصديرية لأوروبا وأفريقيا من الكهرباء المعتمدة على هذه الطاقات.

الخاتمة

تتساوى التنمية المستدامة مع رفع مساهمة القطاعات المرتكزة على المعرفة في الاقتصاد عبر تطوير وزيادة انتاجية العمالة. وهذه الحصة تعتبر كبيرة في الدول المتقدمة اقتصاديًا. وعلى الدول النامية العمل على رفع هذه الحصة في القوى العاملة إلى معدلات قريبة من تلك المحققة في الدول المتقدمة وبشكل سريع. فاستراتيجية القفز السريع لم تعد خيارًا أمام العرب؛ فهي ضرورة للبقاء في اقتصاد عالمي معولم وتنافسي. كلما كانت حصة الاقتصاد الجديد في إجمالي الإنتاج أكبر كلما كانت مؤشرًا لاقتصاد متنوّع ومتوازن وتنافسي ومستديم.

لذا فان الابتكار في خلق وظائف جديدة تعوض عن تلك التي يخسرها أي اقتصاد نتيجة تبني تكنولوجيات جديدة وارتفاع الإنتاجية نتيجة استخدام الذكاء الصناعي والإنسان الآلي في الأعمال الروتينية والنمطية، يتطلب قيام عقد اجتماعي جديد بين الدولة والأفراد وبما يساعد في ترسيخ الأمن والسلام الاقتصادي للكبار في المجتمعات الحديثة، الذين تزداد أعدادهم، وتوازن الاحتياجات مع الموارد المتاحة. وقد ينتج عن الانتقال الى اقتصاد المعرفة والاقتصاد الصناعي الحديث قصور في توفير العدد الكافي من الوظائف خاصة للقوى العاملة متوسطة المهارة أو اقل منها، فالإحصائيات الجديدة في عدد من الاقتصادات المتقدمة تشير الى ارتفاع معدلات القيمة المضافة في الناتج القومي المحلي لا يقابله ارتفاع مماثل في الوظائف، بينما الحقائق تشير الى تدني في عدد الوظائف الجديدة لكل مليون دولار من القيمة المضافة لقطاعي الصناعة والمعرفة. وكان الاعتماد في السابق على القطاع الصناعي والخدمي في امتصاص الفائض من الوظائف في الزراعة والخدمات ذات المستوى المتدني. لذا أصبح لزاما اليوم في الاقتصادات التي تستهدف استخدام وتوطين المعرفة والتكنلوجيا الجديدة العمل على خلق وظائف جديدة واستخدامات مبتكرة تساعد في سد هذه الفجوة في الوظائف التي قد يعجز الاقتصاد المعرفي والأخضر من إيجادها.

ومما سبق يمكن تلخيص اهم مستلزمات النموذج العربي للتنمية الاقتصادية الحديثة بالآتي:

أ- الاستغلال الأفضل للموارد الطبيعية الناضبة والبدء من الآن بالبحث عن الطاقات والموارد المتجددة غير الناضبة والعمل على تطوير استخداماتها.

ب- الحاجة الى بناء استراتيجيات مستدامة للأمن الغذائي والصحي والأمني التي أصبحت أساسية في بناء الاستقرار لإحداث تنمية

اقتصـــادية واجتماعية متكاملة على مســـتوى كل دولة عربية ولمجموع الدول العربية.

ج- إحداث تغييرات مهمة في مســـتويات التعليم وكفاءته في مختلف مراحله وبما يزيد من كفاءة خريجيه وقدرة الدول العربية على استخدام التكنولوجيات المتقدمة وتطبيقاتها الحديثة.

د- تغيير النظرة الى موضـــوع اســـتيراد التكنولوجيات الحديثة وتطبيقاتها والانتقال من مرحلة الاســـتيراد فقط الى مرحلة التوطين والتجـذير لبنـاء تكنولوجيـات وطنيـة أكثر ملائمـة لمتطلبات اقتصاداتها ومجتمعاتها.

ه- التركيز على موضـوع الاسـتقرار الأمني وبناء أنظمة سـياسـية أكثر اسـتدامة والعمل على تجنب الصـراعات التي تسـعى الدول الخارجية الى إقحام دول المنطقة بها خدمة لمصـالحها، إذ إن ما سـببته هذه الصـراعات وعدم الاسـتقرار الأمني خلال النصـف القرن الماضـي كان هدرا كبيرا في الموارد الاقتصـادية وهجرة كارثية للموارد البشـرية عالية المسـتوى وهي الأسـاس لعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

و- الاهتمام بتطوير النظام السياسي العربي والتحول التدريجي الى نظـام يعطي حريـة أكبر للفرد والتعـدديـة الفكريـة واحترام الاختلافات العرقية والدينية والاجتماعية ضـــمن نطاق القانون وحمايته.

ز- الاهتمام بشـــكل أكبر بالتكامل البيني للدول العربية وبالذات المتجاورة وبما يودي الى زيادة الاسـتفادة من الموارد والطاقات لتحقيق التنمية المطلوبة.

ح- البدء وبشكل جدي بمعالجة موضوع الفساد الإداري والمالي في الأجهزة الحكومية والرقابية الذي اسـتشـرى بشـكل أصـبح يمثل السبب الرئيسي لهدر الطاقات والموارد وإعاقة أية عملية تنمية. وذلك من خلال تطوير اجهزة القضـــاء وإنفاذ القانون والأجهزة الضـريبة والمحاسـبة الشـديدة والسـريعة لكافة المشـتركين في عمليات الفساد والمخالفات المالية.

تعمل الدولة على وضـع الرؤى والاستراتيجيات الواضـحة وإشـراك رجال الأعمـال والأكـاديميين وممثلين عن شـــرائح المجتمع كـافـة في صـــيـاغـة الاستراتيجيات المستقبلية.

المراجع

Abramovitz, Moses. 1986. "Catching Up, Forging Ahead, and Falling Behind," *Journal of Economic History*, June, *46*:2, 385–406.

Arrow, Kenneth J., 1962. "The Economic Implications of Learning by Doing," *Review of Economic Studies*, June, *29*, 155–73.

Asafo-Agyei, George and Odongo Kodongo. 2022. Foreign direct investment and economic growth in Sub- Saharan Africa: A nonlinear analysis. *Economic Systems* **31**, 101003.

Barro, Robert J., and Xavier Sala i Martin. 1994. "Chapter 8: Diffusion of Technology." In Barro, R. J., and X. Sala-i-Martin, eds., *Economic Growth*. New York: McGraw Hill.

Bazyli Czyżewski, Agnieszka Poczta-Wajda, Piotr Kułyk, Jolanta Drozdz. 2022. Small farm as sustainable nexus of contracts: understanding the role of human capital and policy based on evidence from Poland. *Environment, Development and Sustainability* **6**.

Dasgupta, P., and J. Stiglitz. 1988. "Learning-by- Doing, Market Structure, and Industrial and Trade Policies," *Oxford Economic Papers*, June , *40*:2, 246–68.

Drucker, Peter. 2015. Innovation and Entrepreneurship. New York: Routledge Classics.

Fagerberg, Jan,.1987. "A Technology Gap Approach to Why Growth Rates Differ," *Research Policy*, *16*, 87–99.

Fernández-García Tania, Liern Vicente, and Pérez-Gladish Blanca, Rubiera-Morollón Fernando. 2022. Measuring the territorial effort in research, development, and innovation from a multiple criteria approach: Application to the Spanish regions case. *Technology in Society* **70**, 101975.

Griliches, Zvi. 1979. "Issues in Assessing the Contribution of Research and Development to Productivity Growth," *Bell Journal of Economics*, Spring, *10*, 92–116.

Korhan K. Gokmenoglu, Bezhan Rustamov. 2022. The role of the natural resource abundance in the short and long run: The case of the Kingdom of Saudi Arabia. *Resources Policy* **77**, 102699.

Krugman, Paul. 1991. *Geography and Trade*. Cambridge: MIT Press.

Lucas, Robert E., Jr. 1988. "On the Mechanics of Economic Development," *Journal of Monetary Economics*, July, *22*:1, 3–42.

Mankiw, N. Gregory, David Romer, and David N. Weil, "A Contribution to the Empirics of Economic Growth," *Quarterly Journal of Economics*, May 1992, *107*, 407–37.

Marshall, Alfred. 1890. *Principles of Economics*. London: Macmillan, 1890.

MacCarthy, John and Helena Ahulu, Rose Thor. 2022. The asymmetric and non-linear relationship between capital flight and economic growth nexus. *Cogent Economics & Finance* **10**:1..

Marchesani, F., Francesca Masciarelli, and Hung Quang Doan. 2022. Innovation in cities a driving force for knowledge flows: Exploring the relationship between high-tech firms, student mobility, and the role of youth entrepreneurship. *Cities* **130**, 103852.

Mezid Nasir Keraga, Mesele Araya. 2022. R&D, innovations, and firms' productivity in Ethiopia. *African Journal of Science, Technology, Innovation and Development* **22**, 1-14.

Mufutau Opeyemi Bello and Kean Siang Ch'ng. 2022. On the sustainability of growth from energy consumption: Empirical evidence from a dynamic autoregressive distributed lag simulation. *Energy Reports* **8**, 10219-10229.

Nelson, Richard R., and Edmund S. Phelps. 1966. "Investment in Humans, Technological Diffusion, and Economic Growth," *American Economic Review*, May, *56*, 69–75.

Nordhaus, William D. 1969. "An Economic Theory of Technological Change," *American Economic Review*, May, *59*:2, 18–28.

Opoku Adabor. 2022. Averting the "resource curse phenomenon" through government effectiveness. Evidence from Ghana's natural gas production. *Management of Environmental Quality: An International Journal* **61**.

Opoku Adabor. 2022. Exploring the asymmetric effect of lending rate on economic growth in Ghana: Evidence from nonlinear autoregressive distributed lag model. *Cogent Business & Management* **9**:1.

Romer, Paul. 1994. "The Origins of Endogenous Growth." Journal of Economic Perspectives. Vol. 1, Winter. Pp. 3-22.

Sadak Mohamud Hassan. 2022. A Causal Analysis on Foreign Trade and Economic Growth: The Case of Somalia. *International Journal of Scientific Research and Management* **10**:08, 3725-3731.

Salah Khan, Muhammad. 2022. Absorptive capacities and economic growth in low- and middle-income economies. *Structural Change and Economic Dynamics* **62**, 156-188.

Solow, Robert. 1956. "A Contribution to the Theory of Economic Growth," *Quarterly Journal of Economics*, February, *70*, 65–94.

Solow, Robert.1957. "Technical Change and the Aggregate Production Function," *Review of Economics and Statistics*, August, *39*, 312-20.

Solow, Robert. 1988."Growth Theory and After," *American Economic Review*, June, *78*:3, 307–17.

Stiglitz, Joseph. 1990. "Comments: Some Retrospective Views on Growth Theory." In Diamond, Peter, ed., *Growth, Productivity, and Unemployment*. Cambridge: MIT Press, 1, 50–68.

Tran Duc Hiep, Bui Hoang Trung, and Le Van Chien. 2022. Quantifying productivity gains from foreign direct investment: The mediating role of provincial institutional quality. *Finance Research Letters* **49**, 103174.

Salah Khan, Muhammad. 2022. Absorptive capacities approaches for investigating national innovation

systems in low and middle income countries. *International Journal of Innovation Studies* **6**:3, 183-195.

Schumpeter, Joseph. 2008. Capitalism, Socialism, and Democracy. New York: Harperprennial.

Siyakudumisa Takentsi, Kin Sibanda, Yiseyon-Sunday Hosu. 2022. Energy prices and economic

performance in South Africa: an ARDL bounds testing approach. *Cogent Economics & Finance* **10**:1.

Sodiq Arogundade, Biyase Mduduzi, Hinaunye Eita. 2022. Foreign direct investment and poverty in sub-Saharan African countries: The role of host absorptive capacity. *Cogent Economics & Finance* **10**:1..

الرفيق إيلي رزّوق محاضرًا

في السادس عشر من كانون الأول 2022، قدّم الرفيق إيلي رزوق، ومن ضمن سلسلة أعمال الندوة الثقافية المركزية، محاضرة قيّمة بعنوان **"ثقافة الخنوع في حياتنا – مظاهرها وتأثيرها"**.

أبرز الرفيق رزوق في محاضرته العوامل والتأثيرات السلبية التي تنعكس على المجتمع عامةً وقضايانا القومية على وجه الخصوص، حين يغرق أدعياء الثقافة وبعض العاملين في الإعلام والفنون في اعتماد سياسة الخنوع والتملّق والابتعاد عن الأصول والمبادئ، فقط من أجل الظهور الفردي أو لكسب عائدات تخدم مصالحهم الفردية.

كنا نرغب جدًّا في أن ننشر في عددنا هذا المادة التي قدّمها الرفيق إيلي رزوق في محاضرته، ولكن، ولأسباب خارجة عن نطاق سيطرتنا، تعذّر ذلك. ونعدُ القرّاء بأننا سنسعى إلى نشر مضمون المحاضرة في أعداد قادمة.

محاضرات الندوة الثقافية المركزية

الكلمة الافتتاحية للأمين الدكتور إدمون ملحم في تقديم البروفسور عاطف قبرصي

أهلا بكم إلى ندوةِ اليوم التي نتناولُ فيها موضوعًا حيويًا ومهمًا هو موضوعُ التنميةِ التي تشكلُ هاجسًا مستمرًا للكثير من الدولِ والمنظماتِ والهيئاتِ الدولية، والتي تعنينا نحنُ أبناءَ النهضةِ القوميةِ الاجتماعية كونَنا معنيين بالنهوض بأمتنا نهوضًا قوميًا شاملًا غايتُه تحقيقُ الحياةِ الجميلة لشعبنا.

لقد تطورَ مفهومُ التنميةِ ولم يَعُدْ محصورًا في النموّ الاقتصاديّ وحدِه، بل أصبح مفهومًا شاملًا يُنظرُ إليه من زوايا متعددة. ويتجهُ الاهتمامُ بالتنميةِ نحوَ التركيزِ على قضايا متنوعةٍ وعلى إحداثِ تغييراتٍ جوهريةٍ في البُنى الاقتصاديةِ والسياسيةِ والثقافيةِ والإداريةِ للمجتمعِ وتطويرِها وبناءِ قدراتِه الذاتيةِ والإبداعيةِ وتمكينِهِ من السيطرةِ على شروطِ تجدُدِهِ وتطورِه.. ويتزايدُ الاهتمامُ في التنميةِ البشريةِ وفي بناءِ مجتمعٍ معرفيٍ ينبثقُ عنه اقتصادٌ معرفيٌ قويٌ ومتطورٌ قائمٌ على الخُبُراتِ والبحوثِ والمواردِ البشريةِ والتعليمِ والابتكارِ والاستخدامِ الواسعِ والفعّالِ لقوةِ المعرفةِ وإنتاجِها ولتكنولوجيا المعلوماتِ والاتصالات .

إن غايةَ التنميةِ هي "الإنسان" وتحسينُ حياتِهِ وقدراتِهِ وجعلِهِ مواطنًا صالحًا متسلحًا بالعلمِ والمعرفة. فالإنسان هو محورُ التنمية. فهو صانعُها وهدفُها والمستفيدُ منها. والبشرُ هم ركيزةُ تقدمِ الدولِ والثروةُ الحقيقيةُ لأيةِ أمة.. لذلك ينصبُّ الاهتمامُ على التنميةِ البشريةِ وتحسينِ نوعيةِ الحياةِ وإتاحةِ فرصٍ ومجالاتِ الاختيارِ أمامَ الناس، وبناءِ ثقتِهم بأنفسهم وإطلاقِ طاقاتِهم.

التنميةُ، برأينا، هي عمليةُ نهوضٍ وتطويرٍ وتنميةٍ شاملةٍ مرتبطةٍ بالجذورِ الثقافيةِ والاجتماعيةِ للمجتمعِ ونابعةٍ من داخلِه، من تراثِ الشعبِ وقيمِهِ وثقافتِهِ الأصيلةِ ومن إرادتِهِ القوميةِ وتضامنِهِ وجهده، وغايتُها "تجويدُ حياةِ الإنسان" نوعًا وجوهرًا وتوفيرُ الحياةِ الأفضل والأجمل له .

التنميةُ الحقةُ هي مشروعٌ حضاريٌ جادٌ وشاملٌ وطويلُ الأمد تحققه إرادةٌ مجتمعيةٌ مؤمنةٌ وواعية. هي ليست مسؤولية الدولةِ وحدها، بل هي مسؤولية جَماعية وأخلاقية تتم بمشاركة وتعاون الجميع أفرادًا ومنظمات وأحزاب سياسية بالإضافة إلى الدولة ومؤسساتها.

وبالعودةِ إلى واقعِ أمتِنا المأساوي وعالمنا العربي، نسأل:

أينَ نحنُ من التنميةِ المعرفيةِ والبحوثِ العلميةِ وإتقانِ العلومِ الحديثةِ واقتناءِ التكنولوجيا وتوطينِها؟ أين هي دولُ العالمِ العربي كلِّها من مراكزِ البحوثِ والدراساتِ والابتكاراتِ التكنولوجيةِ ومن التنميةِ المستدامةِ والمتواصلةِ والمتوازنة؟ أين هي هذه الدولُ من تعزيزِ ثقافةِ الإبداعِ والابتكارِ ومن الديمقراطيةِ التي تحققُ التنميةَ في كافةِ أنشطةِ الحياة؟

أوَليسَ تضاءلُ، أو ربما غيابُ، الممارسةِ الديمقراطيةِ في هذه الدول، دليلًا على تدني حالةِ التنميةِ فيها؟

ما هي معيقاتُ وتحدياتُ التنميةِ المستدامة؟

ضيفُنا اليوم حضرةُ الأمين الدكتور عاطف قبرصي الجزيلُ الاحترام جديرٌ بالإجابةِ على هذه الأسئلةِ وغيرها.

والأمين قبرصي هو رجل علم وخبير اقتصادي متفوق يتمتع بشهرة واسعة في المجتمع الأكاديمي وفي الأوساط الاقتصادية العالمية .

- هو أستاذٌ فخريٌ في الاقتصاد في جامعة ماكماستر في كندا، ولديه خبرةٌ واسعة في الاستشارات الاقتصادية المتخصصة. ويتولّى إدارةَ شركتِهِ الخاصّة بتقديمِ الدراساتِ القياسيّةِ والاستشاريّة للمؤسّسات الكنديّة والعالميّة.
- تولّى العديدَ من المناصبِ والمهامِ الاقتصاديّة الكنديّة والعربيّة والدوليّة نذكر منها:
  - السكرتيرُ التنفيذي بالإنابة، ووكيلُ الأمينِ العام للجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (أسكوا).
  - مستشارٌ للبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة، ومؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ولغيرها من المنظمات والحكومات الدولية الأخرى.
- نشرَ الدكتور قبرصي المئاتِ من الدراساتِ والمقالات في الدوريات الاقتصادية العالمية وألقى عشراتِ المحاضرات وله ثلاثة عشر كتابًا في الاقتصاد.

الأمين الدكتور إدمون ملحم في ندوة الفلسفة الرواقية

واجبنا القومي يحتّم الاهتمام بتاريخنا وحضارتنا

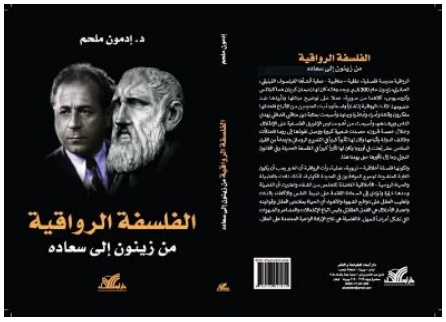

عقدت الندوة الثقافية المركزية في عمدة الثقافة والفنون الجميلة أولى محاضراتها للعام الجديد، مساء الجمعة الموافق فيه 27 كانون الثاني، وكانت حول المؤلَّف الأخير لرئيس الندوة الثقافية المركزية الأمين الدكتور إدمون ملحم **"الفلسفة الرواقية: من زينون إلى سعاده"**، الذي أصدرته مؤسسة سعاده للثقافة مؤخرًا عن دار أبعاد.

حضر الندوة نائب رئيس الحزب / رئيس مجلس العمد الأمين ربيع زين الدين وعميدة الثقافة الرفيقة د. فاتن المر، إلى جانب عدد من المسؤولين المركزيين وذوي الاهتمام بالثقافة والفلسفة من مختلف أنحاء العالم.

فيما يلي الكلمات والمداخلات التي تفضّل بها المشاركون:

كلمة الأمين ادمون ملحم

بدايةً أشكرُ عُمدةَ الثقافةِ والفنونِ الجميلة المحترمة، وأشكرُ الهيئةَ المسؤولةَ في الندوةِ الثقافيةِ المركزية لاختيارهم كتاب "الفلسفة الرواقية- من زينون إلى سعاده"، كي يكونَ موضوعَ ندوةِ اليوم. وأغتنمُ المناسبةَ لأشكرَ أيضًا مؤسسةَ سعاده للثقافة التي تبنّت هذا الكتاب، وبادرت إلى نشرِهِ بهدف إغناء معارفنا ومكتبتنا القومية والإضاءةِ على فكرٍ عظيمٍ من بلادِنا نبغَ في مجالِ الفكرِ والفلسفةِ، وأسسَ مدرسةً فلسفيةً ما يزالُ تأثيرُها فاعلًا في العالم إلى اليوم. كما أشكرُ الصديقةَ الباحثة ريتا زيادة لقبولِها الدعوةَ للتكلمِ عن الكتاب، وأقدّرُ جُهدَها البحثي، كما أشكرُ حضرةَ وكيلِ عمدةِ الثقافة الرفيق إبراهيم مهنا والرفيق فادي خوري لمشاركتِهما أيضًا في هذا العملِ الثقافي. وأشكرُ كلَّ الأمناءِ والرفقاءِ والمواطنين الأصدقاءِ المشاركين معنا اليوم بوجودِهم ومداخلاتِهم وآرائهم. وآملُ ان تكونَ هذه النَدوةُ مفيدةً للجميع.

ما الذي دفعني للكتابة عن زينون الرواقي؟

يعودُ السببُ إلى اهتمامي بزينون، أولًا، إلى ما كنتُ أسمعُه من شروحاتٍ وما قرأتُ من كتاباتٍ عنه لحضرةِ الأمين الدكتور حيدر حاج إسماعيل، أطالَ اللهُ بعمرِه، وهو مفكرٌ مرموقٌ ومتخصصٌ في الفكرِ الفلسفي. ونتيجةً لذلك تولّدَ عندي شغفٌ بهذا الفيلسوفِ الفينيقي العظيم.

والدافعُ الثاني لاهتمامي بالمعلم زينون يكمُنُ في ما زرعَتْهُ تعاليمُ النهضةِ القوميةِ الاجتماعيةِ في نفوسِنا من إيمانٍ بأصالتِنا وحقيقتِنا الجميلةِ الخيّرة، وبما يُخْتَزَنُ في مجتمَعِنا من خيرٍ وجمالٍ وإبداع.

هذه النهضةُ العظيمةُ ولّدت في نفوسِنا الشعورَ بالمسؤوليةِ والواجبِ القوميّ بضرورةِ الاهتمامِ بتاريخِنا الحافلِ بالإنجازاتِ الحضارية، ودرسِهِ لنفهمَ حقيقةَ نفسيتِنا السورية ومراميها، ولتتكوَّنَ لدينا المعرفةُ الصحيحةُ في ما يخصُّنا من تراثٍ فكريٍ أصيل. فمن المعروفِ أن لأمتنا السوريةِ تاريخًا طويلًا زاخرًا بالعباقرةِ والعظماءِ والقادةِ النوابغِ والحكماء، ومليئًا بالمآثرِ والعطاءاتِ والإنجازاتِ الحضارية... ويقول سعاده: "هنيئًا للأمةِ التي لها تاريخ.. وويلٌ للأمةِ التي لا تاريخَ لها"[1] لأنه **"لن يكونَ لها منزِلَةٌ محترمةٌ وحقوقٌ معترفٌ بها عند الأممِ الأخرى."**[2]

ولكنَّ مشكلتَنا تكمنُ في جهلِنا لتاريخِنا الحضاريّ الذي أُهملَ وضاعَ في الحوادثِ التاريخيةِ المتعاقبةِ التي طمستِ الآثارَ ودفنتها تحتَ الأنقاضِ والخرائب.. وكما يقولُ سعاده: **"إنّ أعظمَ ما أُصِبنا به هو أننا نسِينا تاريخَنا، وصِرنا حائرينَ كاليتيمِ الذي يجهلُ أباه وأمَّه.."**[3]

[1] أنطون سعاده، الآثار الكاملة – الجزء الثالث، 1937، بيروت، 1978، ص 205.

[2] أنطون سعاده، "الاتحاد العملي في حياة الأمم"، الآثار الكاملة– الجزء الثاني– 1932–1936، بيروت، 1976، ص 108.

[3] الزعيم في سانتياغو، سورية الجديدة، سان باولو، العدد 67، 1940/05/25.

عودة إلى الرئيسية

لذلك، من الواجبِ علينا ان نعودَ إلى دراسةِ تاريخِنا وفهمِ أحداثِهِ وإعادةِ تركيبِها وإعطائِها معانيَها الإنسانيةَ والمناقبية. يجب على السوري، كما يقول سعاده، أن **"يراجعَ تاريخَه ويدرُسَهُ بتدقيقٍ وإمعان. ومتى لاحق هذه القضيةَ يُدركُ أنه ليس يتيمًا بل هو ابنُ تاريخٍ مجيد، وأنّ بلادَهُ أعطت إنتاجًا في أسواقِ الرقيّ الإنسانيّ مثلَ أعظمِ الأمم، بل أكثرَ منه!."**[4]

إذًا، ان الدافعَ الأساسيَّ الذي دفعني للكتابةِ عن زينون يكمُنُ في الشعور بالواجب القومي الذي يحثّنا على عدمِ إهمالِ تراثِنا الثقافيّ والفكريّ الذي يشكّلُ ثروةً روحيةً للأمة، لا بل يدفعُنا للدّفاع عنه والمطالبةِ به واستعادةِ ما نُهِبَ من آثارِنا وما نُسِبَ لغيرِنا من سوريين خالدين. إن الواجبَ القوميَّ يحتّمُ علينا العودةَ إلى تاريخِنا القومي وإلى جوهر الأمةِ ونفسيتِها الحقيقيةِ الظاهرةِ في الإنتاجِ الفكري والعملي لنوابغها الكبار، وفي "ما خلّده سوريون عظام كزينون وغيرُهُ من فلاسفةٍ وحكماءَ وعلماءَ وأدباءَ وشعراءَ وعباقرةٍ خالدين وذوي فضلٍ كبيرٍ على الإنسانية. من واجبنا أن نعرفَهم وأن نعيدَ المسروقين منهم ونضمَّهم إلى صانعي تراثِنا الثقافيّ والفكري الذي نجدُ فيه جذورَ هويتِنا التاريخية.

في هذا الكتاب حاولت

1- الإضاءةَ على ما قاله سعاده عن زينون وعلى الأهميةِ التي أعطاه إياها.

2- التعريفَ بزينونَ وشخصيتِه مع شرحٍ كيفيةِ ذهابِهِ إلى أثينا والبقاءِ فيها وإنشاءِ المدرسةِ الرواقيةِ التي كان لها انتشارٌ واسعٌ وتأييدٌ شعبي.

3- التعريفَ بعقيدةِ زينون بشكلٍ مُفَصّلٍ في سياقِها التاريخي

4- الإضاءةَ على تأثيرِ الفلسفةِ الرواقيةِ في النهضةِ الأوروبيةِ وفي فكرِ العديدِ من الفلاسفةِ والمفكرين الكبار

5- الإضاءةَ على الاهتمامِ العالمي بالتعاليمِ الرواقيةِ في وقتِنا المعاصر.

كلمة الرفيق فادي خوري

لعلّ ما يتميز به كتاب الأمين ملحم، في الدرجة الأولى، هو أسلوبُهُ في الكتابة، هذا الأسلوبُ الذي يجعلنا نهتم بالرواقية والفلسفة وزينون وأوريليوس إلى جانب اهتمامنا بسعاده وفكره وعقيدته. وفي كتابه، استطاع ملحم أن يحوّل مسألة سورنةِ زينون مقابل يونَنته إلى مبارزةٍ ذهنيةٍ، أمّن لنا ملحم لها حلبةَ الصراع والمتفرّجين والحكّام، ومن ثمَّ حسمَ لنا الأمر لصالحِ سوريانا.

ولا يقِلُّ موضوعُ محاولاتِ الغربِ المستمرّةِ في التعتيم على حضارةِ سوريةَ وفلاسفتها وعلمائها، لا يقِلُّ إثارةً للجدلِ بل والاهتمام عند إدمون ملحم، فتنتفضَ فصولُ الكتاب مدافعةً عن أولويةِ حضارةِ سورية وثقافتها، ومدى فعلِها في الفن والسياسة والاجتماع والعلوم الطبيعية والرياضية.

وفي معرضِ كلامِهِ عن الرواقيّ المتميز ورؤيتِه للفلسفةِ كأساسٍ معرفي، ويمكننا القولُ "علمي"، يعزّزُ فينا ملحم القدرةَ على تقصّي الرابطِ بين زينونَ وسعاده، حتى لتشعُرُ أن عقيدةَ سعاده، وكذلك فكرَه، ليست إلاّ امتدادًا فكريًا، إذا صحّ التعبير، لأثر إيمان حقيقي بمدى تفاعل الإنسان مع ما يحيط به من ظواهرَ وأفكارٍ ورؤىً تحدّث عنها الفيلسوفُ الفينيقي قبل قرون من الزمن. وتلاحَظَ الاثنان في رؤيتيهما هذه، أي الفلسفة كأساس معرفي، لتكوّنَ مصدر سعادةٍ للإنسان تنقله إلى عالمٍ أفضل وأحقَّ وأكثرَ مثاليةٍ.

كما ويبيّن لنا الأمين ملحم في كتابِهِ كيف أنه لا يمكننا، على الإطلاق، إغفالَ الجامعِ الأكبر والعاملِ الأكثر تشاركًا بين رواقيةِ زينون ونهضوية سعاده، ألا وهو العقلُ بكلّ طاقاته وقوّتِه كعاملٍ مشرعنٍ لحياةِ الإنسان، وبالتالي المجتمع، إضافةً إلى نواحٍ أخرى كنظرتيهما للحقّ والعدلِ والأخلاقِ والخير.

قراءة الباحثة ريتا زياده

"بعزيمة كأنها القضاءُ والقدر"

عزيمةٌ عليها يبني سعاده مشروعَ نهضتِه الفكريةِ والمجتمعيّة. هذه العبارة التي تبعث القوةَ والأملَ في النفوس، نجدُها في صلبِ موضوعِ هذا الكتاب.

يأتي هذا الكتابُ بأسلوبه الموسوعي والتوثيقي الدقيق ولغته المبسّطة على فكرتين محوريتَين. تتمثّل الأولى في تِبيان دَهاء زينون الرواقي وإسهاماتِه في الفلسفة اليونانية معَ تمسّكِه بأصوله السورية. وينقّب الكاتبُ عن آثارٍ فكريةٍ قيّمة وإنجازاتٍ حضاريةٍ جادّة، يرّدُّها الى أصلها وجذورِها منعًا للالتباس والتحوير.

فيما الفكرةُ المحوريةُ الثانيةُ تكمن في تِبيان عبقريةِ سعاده في فهم هذه الفلسفة ونقدِها. وفي الدعوةِ الى الانتقال من زمن التحليل والتنظير إلى مرحلة ابتكار الحلول العملانية الفعّالة.

من الناحية الفلسفية المنطقية، نرى تقديمَ زينون لدور العقل في إدارة الواجبِ الأخلاقي والسلوك الفعّال. نشدد على دور العقل، ولكن ليس كلُّ فكرٍ عقلاني فكرًا عملانيًا مثاليًا بالضرورة. فما يميّزُ أطروحتَي زينون وسعاده في إطار فلسفة العمل والإنتاج، هو، النشاطُ العقليّ المنطقيّ الرياضي المتسلّحُ بالأخلاق والمعرفةِ العلمية (العقليّة الأخلاقيّة لدى سعاده). أما الفلسفاتُ العملانيةُ الأخرى فإمّا تنطلقُ من

[4] المرجع ذاته.

المادة فتتحولُ إلى فلسفاتٍ منفعيةٍ فرديةٍ وإمّا تنطلقُ من الحاجةِ الإنتاجيةِ والعقلِ الاستهلاكي كالفلسفة البراغماتيةِ الأميركية التي لا تعنيها المعرفةُ كقيمة.

من الناحية الفلسفية الوجودية، نلاحظ تميّزَ الرواقيةِ عن سواها من الفلسفات فيما يخصّ نِظرةَ الإنسان الى الوجود. فالفلسفة اللّذية مثلًا، hedonism، تتخذ المتعةَ واللّذّة هدفًا لها. فيما الفلسفةُ العدميةُ، nihilism، فتبرر القدريةَ باللاجدوى. أما زينون وسعاده فيُسيّران القدرَ باتجاه الارتقاء، باتجاه الحق والخير والجمال.

من الناحية النفسية، تَشُدّنا قراءةُ الكتاب صفحةً بعدَ صفحةٍ إلى مراجعةِ أنفسِنا ومساءلتِها، إلى تفعيل عقلِنا النقدي، على ضوءِ ما يدعونا إليه المفكّرين. هذا الكتابُ لا يقتصرُ، إذًا، على تثقيفِنا بل يضعُنا أمامَ مرآةِ النفسِ والفكر لنسألَها من نحن؟ وماذا نريد؟ هل نتحلى بتلك الفضائل؟ وهل نطبّقها فعلًا كما دعانا سعاده؟

بالعبارة "إنّ زينون قد خطط، أما سعاده فخطّط وبنى" ختم سعاده مقالتَهُ المعنونةَ "من عهد زينون إلى عهد سعاده"، بهذه العبارة، يبيّن سعاده أوجهَ الشبهِ بينَه وبينَ زينون المتجليّةَ في التخطيط، وأوجهَ الاختلافِ والتميّزِ المتجسدةَ في عمليات التنفيذ والبناء. من هنا، نرى أن التوقفَ عند الحالات التطبيقية التي قام بها سعاده تجسيدًا لفلسفته كان ليُغنيَ النصّ (مع إمكانية تقليل الاقتباسات). فما أكثرَ وِقفاتِ العزّ التي أثبتَ فيها سعاده أن التاريخَ لا يُصنعُ بالأماني والنيّاتِ إنّما بالأفعالِ والوقائع.

في المقالة نفسِها، التي أظنها المدوّنةَ الأساسيةَ التي بنى عليها المؤلّفُ أهمَّ فرضياتِه، ومنها توسّع في بحثِه، يذكر سعاده المتوسّط ستَّ مرات. والفكرُ المتوسطي، إذا ما أردنا دراستَه على ضوء فلسفة سعاده المدرحية ذاتِ الأبعاد الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، قد نستنبط بناءً فلسفيًا كاملَ العناصرِ، فيه حلقاتٌ بحثيةٌ، تنطلق كلٌّ منها من الفكر القديم المتجدد، العميقِ الجذور، لندرس من خلالِها أحدَ المفكرين السوريين وعلاقتَه بفكر سعاده. (تمامًا كما فعل دكتور إدمون في كتابه هذا، الذي يمثّل حلقةً من هذه الحلقات). ومع اكتمال حلقات مفكريّ سورية ومُبدعيها، يمكنُنا التوسعُ لتشمَلَ الدراسةُ مفكرينَ متوسطيينَ من خارجِ الأمّة السوريّة أو مفكرينَ تأثروا بالفكر المتوسطي، كابنِ خلدون وابنِ رشد ونيتشه وأغوست كونت. بذلك نكون قد أظهرنا أهميةَ هذه المنطقةِ الحضارية وأهميةَ فكرِ سعاده. فالنزعةُ المتوسطية التي تضمُّ زينون وسعاده والمعرّي وغيرَهم من المفكرين، تتميّز بالعلاقة التفاعليّة الأفقية والعَمودية (أي مع الأرض والإنسان) ذاتِ الاتجاه الارتقائي، وبالانفتاح على العالم. هي تمثّل الاستقلالَ الفلسفيّ والتجديدَ والمثاليةَ المطبقةَ كذلك الوجوديةَ المختلفة عن الوجودية الغربية العبثية.

أقترح ذلك لأنني، وفيما أتعمق في بحثي الفلسفي، أرى طيفَ سعاده في كلّ فلسفة. كذلك أراه فاعلًا في عددٍ من مفكّري الأمّةِ السورية المعاصرين، أدباءَ ومفكّرينَ وباحثين، يَكُدّون لإظهار الحقيقة ويَجْهدونَ لتحقيقِ الارتقاء، تمامًا كما فعلَ دكتور إدمون في هذا الكتاب بعزيمة وإخلاص.

قراءة وكيل عميد الثقافة الرفيق إبراهيم مهنّا

من زينون الى سعاده محطات كثيرة وبالأحرى هي تحولات حقيقة. السؤال البديهي: ما هي هذه المحطات وما المشترك بينها؟

الرواقية هي دون شك احدى المحطات الهامة، والسؤال هل تندرج الرواقية في سياق تاريخي فكري كامل واحد متواصل؟ وبديهي إن سؤالين يشكلان أساس المقاربة:

ما كان دور سعاده في كشف هذا النتاج الفكري وتحليله وتقييمه؟

والأهم **ما كان دور القوميين بعد سعاده في استكمال ما فتحه سعاده ورسم خارطته؟**

الواقع إن سعاده والقومية الاجتماعية، هي من اهم محطات التحول الفكرية، لقد شرح وحلل ونقد مجمل النتاج الفكري وفي كل المجالات وأعاد صياغته كاملا، فنقد حيث وجب، ونقض ما لزم، وأصلح حيث أمكن الإصلاح، وفتح الأفق حيث بدت الأبواب موصدة، ودعا العقل السوري الذي عرف بالابتكار الى تحمل دوره كاملا والقيام به.

كان فتح سعاده عظيما في كل المجالات. في مجال **التاريخ السوري** كان منه المطموس والمزيف والمسروق، فانكب عليه سعاده وفتح الباب كاملا لإعادة كتابة هذا التاريخ وتصحيحه وتنقيته وكشف الدور الطليعي الحضاري لسورية. وفي مجال **السياسة والسلطة، كانت** مساهمة سعاده عظيمة في نقد المفاهيم السائدة ونقد الفلسفات التي تأسست عليها هذه النظم ونقد تجربتها وإعادة صياغتها على أسس فلسفية فكرية جديدة. وأيضًا فتح النقاش **الاقتصادي** والنظم الاقتصادية فنقد أسسها الفلسفية ومضامينها الأخلاقية والاجتماعية وصوب نحو تجاربها التاريخية ليكشف قصورها وفشلها في تحقيق المضامين الأساسية وأهمها العدالة. وفي **باب الفلسفة** فتح باب النقاش واسعا منتقدا المدارس المادية والمثالية وقصورها عن تحقيق الغايات الأساسية في تفسير التاريخ وتطوره بعوامل أحادية مادية أو روحية، فكشف تخبطها وعدم قدرتها على تجاوز مآزقها مثبتًا أساس النظرة على الاجتماع الطبيعي وتحديد عناصره وكشف علاقات التفاعل بينها والبنى الناتجة عن هذا التفاعل وهذا الاجتماع، والأهم أن تطبيقات المدارس الفلسفية الأساسية في الاقتصاد والسياسة والتربية والاجتماع كانت مخيبة. وأيضًا كانت له مشاركات قيمة في مكاربة الفنون وخاصة الأدب والموسيقى وتحليل أدوارها ومشكلاتها وعلاقتها بنفسية الشعوب ودورها في تحقيق النهضات الفكرية للأمم التي تنتمي اليها هذه الفنون. أيضًا انتقل الى نقد المفاهيم السائدة نقدا جذريا كمفاهيم الحق وحرية وديمقراطية والتمثيل والمساواة والشرق وحتى المجتمع والعقد الاجتماعي والإرادة العامة والتمثيل وأيضًا الفرد والعلاقة بين

الفرد والجماعة، والاشتراكية والديمقراطية التمثيلية البرلمانية، والعروبة وصراع الطبقات والظاهرة الدينية وعلاقة الدين بالاجتماع البشري، وغيرها، فلم يبق مفهوم إلا وناقشه وأعاد صياغته. وغيرها من الموضوعات في كل مجلات المعرفة.

نعم كل هذا الفتح الشامل كان لسعاده الدور فيه، وانتظرنا دور التلامذة لاستكمال العمل. لكن النتائج كانت مخيبة أحيانا.

لعل استغرابي بلغ حدا عظيما عندما وجدت أن كتاب الأمين ادمون هو أول كتاب في الرواقية التي فتح سعاده بابها العظيم منذ أكثر من ثمانين عاما. لا كتاب، ولا رسالة أكاديمية في التعريف بالرواقية ودورها في الفلسفة العالمية أو في التاريخ السوري، والأهم أن هذا الغياب كان عاما حتى في مجمل الميادين الأخرى. كل ذلك يقودنا الى السؤال: أين **كانت مؤسسات الحزب الثقافية والإذاعية في هذا الشأن؟ ولماذا هذا الغياب غير المبرر كل هذه العقود؟**

أيضًا من المفاصل الهامة هو **دور سورية** الرائد في الحضارة اليونانية، ودورها في الحضارة الرومانية، ودورها في الحضارة الإسلامية، وتطرق اليها سعاده جميعا وهنا يتوجب الإشارة الى الأمين عيسى اليازجي مثلا الذي كتب كتاب مآثر سوريا في العصر الروماني، ويشير في المقدمة انه كتب هذا الكتاب بناء على وعد قطعه على نفسه للزعيم، أن يكشف يوما الدور السوري في الحضارة الرومانية، ويبقى السؤال ما هو دور الكتّاب القوميين وما هو دور المؤسسات في استكمال هذه العناوين جميعا والتي تشكل الرواقية إحداها وهي الدور السوري في الفتح الفلسفي؟

الثابت أننا لم نكن على مستوى هذا الفتح الضخم الجبار الذي فتحه سعاده، فكان النتاج مبادرات فردية مشتتة غير مترابطة، والملفت مثلًا أن اهم دراسات للأساطير السورية مع الباحث فراس السواح، والتاريخ السوري مع خزعل الماجد، وجاءت أيضًا دراسات الفلسفة مثلا مع د. عادل الضاهر ود. ناصيف نصار، كل ذلك يقودنا الى الموقع نفسه، غياب الأفراد وغياب خطط المؤسسات رؤيتها المنهجية. بعد هذه المقدمة، ادخل الى موضوعنا لأقول: **إن الرواقية محطة هامة من خط فكري واحد، هو بالأحرى التعبير الحقيقي عن جملة الخصائص النفسية التي ميزت الحضارة السورية منذ نشوئها.**

والسؤال أين نجد هذا الخصائص؟

نجد هذا الخط في الأماكن التالية:

1. في الأساطير **السورية القديمة** سواء في الرافدين أو فينيقيا أو سوريا الداخلية، من أساطير الخلق والطوفان والانبعاث والخلاص غيرها، وفيها كل المضامين النفسية والفكرية التي عبر شعبنا فيها عن رؤيته للحياة وموقعه فيها ونظرته الكاملة. وهذا يحتاج الى أكثر من دراسة.
2. في **الفنون** التي أنتجتها الحضارة السورية من موسيقى وأدب ومسرح وغيرها وأيضًا تحتاج الى عرض وتحليل واستخراج المزايا النفسية المذكورة.
3. في جملة **التشريعات والقوانين** بدءا من إصلاحات اوركاجينا مرورا بشريعة أورنمو ولبيت عشتار وقانون حمورابي وصولا الى المدارس الحقوقية والتشريعات التي سميت رومانية.
4. في جملة **المنجزات الحضارية النفسية والمادية** من تدجين الحيوان وتدجين القمح وابتكار المعزق والأبجدية وأساليب الحكم وعلوم الفلك والرياضيات والزراعة وشبكة المواصلات وغيرها والأسلحة الحربية والقلاع وغيرها.
5. **الفنون المعمارية** بكل مجالاتها الحربية والسكنية والدينية والفنية والجسور والأقنية وغيرها كلها بحاجة الى تحليل ودراسة.
6. في **الطقوس** الدينية والاجتماعية و**المعتقدات** و**الرموز** والتي تعبر عن خصائص شعبنا ونظرته الى الحياة.
7. أيضًا **تعاليم الآلهة** التي عبر فيها شعبنا عن نظرته. فبعل مثلا يقول قبل خمسة آلاف سنة: **ارم سيفك واحمل معولك واتبعني ننشر في الأرض السلام**. ومن تعاليم الآلهة في تدمر: لا تسخر من إله لا تعبده.
8. أيضًا في **تعاليم الحكمة** من وصايا شروباك وحكمة احيقار وغيرها والتي تعبر عن نظرة سامية الى الحياة.
9. أيضًا **الأدب** ومنه أدب الملاحم وأدب الأناشيد والابتهالات الدينية، وأدب الحوارات كحوار السيد والعبد.
10. نعود الى التحليل أن التحولات التاريخية في العالم القديم، كما كتبت الدكتورة فيفيان شويري كانت دائما مشرقية. وهذا وحده موضوع للدراسة هل صحيح أن تحولات العالم القديم كانت دائما مشرقية والأهم ما هي هذه التحولات ولماذا؟ ولعل الرواقية هي احدى هذه التحولات الهامة.

من خلال قراءتي تبين لي أن هناك خطًا فكريًا واحدًا تميز بثلاث سمات: **العقلانية** و**الأخلاقية** و**العملانية. العقلي** هو التفسير المنطقي ومن اهم سماته كما يقول سعاده الابتكار. **الأخلاقي** ضمن ثلاث عناوين أولا الفضائل وثانيا التضحية وثالثا العطاء.

أما **العملي** فهو تحويل الحقيقة الى فعل. إن قيمة الحقيقة هي ما تؤدي من فائدة. وقد يبدو سهلا على المستوى النظري فصل هذه السمات لكنها في الواقع كل واحد لا ينفصل.

نعود الى الرواقية، اهم ما كرسته الرواقية **هو الاتجاه العقلي** بإنتاج المنطق الرمزي. ومبدأ **الفضيلة** ودورها، وأيضًا في تكريس مبدأ

عودة إلى الرئيسية

التضحية على قاعدة الواجب، وزينون هو من ابتكر **مفهوم الواجب** أي الواجب الأخلاقي. وقد صاغ زينون مفهوم الإنسان **الكوني** ردا على مبدأ الإنسان المديني على قاعدة أن الإنسان أخو الإنسان بالإنسانية فساوى بين العبد والحر، وفكك التمييز العنصري. الأهم من كل ذلك أن الرواقية أكدت على أن **الإنسان غاية الوجود** وان **قيمة الحقيقة بتطبيقها** وهذا اهم مرتكزات العملانية.

جاءت المسيحية لتؤكد هذه الثوابت جميعا أن الفضيلة هي الأساس وأن الإنسان أخو الإنسان بالإنسانية فدعا يسوع الى تلمذة جميع الأمم وان الشريعة في خدمة الإنسان وليس العكس، ومن قواعد الفكر العملي: مرتا مرتا تهتمين بأمور كثيرة والمطلوب منك واحد. وقد ارتقى بالخطيئة من مستوى الفعل الى مستوى النية فأصبحت النية كافية كي تحصل الخطيئة وفي التضحية كرست مفهوم العطاء الكامل: "لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا، وهُوَ أَنْ يَبْذُلَ *الإنسان نَفْسَهُ* في سَبِيلِ *أَحِبَّائِهِ*.

كان الصراع بين اليهودية وخط الفكر السوري حاسما، حاولت اليهودية بخطها المنافي للنفسية السورية أن تقود الروح السورية وتقبض عليها فانفجرت ثورة كاملة.

1. اليهودية مارست كل أشكال الرذائل من وكذب وسوء أمانة ونفاق وخيانة وزنى وغيرها وكرستها.
2. اليهودية أكدت أن الشريعة أساس الحياة وأن الإنسان في خدمة الشريعة.
3. اليهودية أكد التفوق اليهودي العرقي.
4. اليهودية جعلت الإنسان عبدا للإله وللطقس وللشريعة.
5. اليهودية حصرت نفسها وإلهها بشعبها.

تحجرت التعاليم والطقوس والفكر وحصل الاصطدام الجذري. كان المسيح هو الرد العقلي الأخلاقي على التحجر اليهودي. اليهودية تقول: لا يجب أن نفعل شيئا يوم السبت. فسألهم المسيح: حتى الخير؟
اليهودية تقول إن الزانية ترجم. فقال المسيح: هل يجوز لخاطئ أن يحاسب خاطئا؟ وتتكمل فصول المواجهة بين عقل عملي وتحجر ناموسي.

بالخلاصة اليهودية هي خارج كل السياق الثقافي الفكري السوري الأخلاقي. هذه الدراسة التي كان يجب على المؤسسات الحزبية توجيه الدعوة اليها. لنرى الدكتورة صفية سعاده مثلا تقول إن سعاده في الإسلام في رسالتيه يساوي بين الأديان المسيحية والمحمدية واليهودية. وهنا تصبح العودة الى ألفباء القومية الاجتماعية، ويصبح الانطلاق من نقطة الصفر.

إذا انتقلنا الى القومية الاجتماعية نرى أنها كرست هذا الخط السوري كاملا. كرست الفضيلة وأعادت صياغة الحياة على أساسها، فهي في موجودة في صلب القسم الشرف والأمانة والصدق والنزاهة والإخلاص وفي شروط الانتماء كما نرى الفضائل النفسية وهي الإرادة والعزيمة والإصرار والثبات وأضافت اليها فضيلة المجاهرة. وأيضًا الفضائل العقلية. كما نجد مبدأ التضحية من حيث مبدأ التضحية كاملا ومحصورا في تضحية الفرد في سبيل الجماعة، وصولا الى أعلى درجات التضحية وهي الفداء وحتى الاستشهاد. وقد مورست في القومية الاجتماعية كاملة. إن مبدأ التضحية وفلسفة التضحية ودورها بحاجة كلها إلى تعمق وتوسع. وان الغاية الشريفة يلزمها وسيلة شريفة كما نجد كل مفاهيم العطاء. القومية الاجتماعية ثبتت أن الإنسان غاية الوجود. كما ثبتت المبدأ العقلي باعتبار العقل هو الشرع الأعلى والأساسي. وأكدت على ميزة الابتكار التي طبعت النموذج السوري، ودعا سعاده العقل السوري الى ابتكار جملة من الحلول للمعضلات التي تعترض الفكر ومنها ابتكار الأشكال السياسية التي تعبر عن المضامين الفكرية للنظرة الى الاجتماع والسياسة. لقد ثبتت الاتجاه العملي على قاعدة المعرفة التي لا تفيد كالجهالة الي لا تضر.

إن الرواقية والمسيحية واليهودية والقومية الاجتماعية واسعة جدا يكفي أن ندقق في قواعد السلوكية لكل منها، كي ندرك خط الترابط.

بين الرواقية والقومية الاجتماعية والمسيحية مضامين كثيرة لعل ضبط المضامين يكون بعرض قواعد السلوك التي كرستها هذه التحولات، وعليه:

- ماهي قواعد السلوكية الرواقية؟
- وما هي قواعد السلوكية القومية الاجتماعية؟
- ما هي قواعد السلوكية التوراتية؟ وهنا ينفتح باب البحث واسعا الى مكانه الصحيح.

نختم بهاتين القاعدتين، وهي من قواعد الرواقية:

القاعدة الأولى:

اجعل، أيها الاله، خصيبًا حقلي وزرعي منتجًا (صلاة غير مقبولة) (اجعل أيها الاله، حقول بلادي خصيبة، وأمطرها من لدنك الري، واجعل إنتاجها جيدًا! (هكذا يجب أن تصلي والا فلا تصلي)

القاعدة الثانية:

ليس حرًا من تكبله المساوئ: الطمع، الحقد، النميمة حب الثراء لأجل الثراء. كل ما يقلق الضمير ابتعد عنه. أعمل بالتوافق مع وجودك الخير فتبقى حرا.

عودة إلى الرئيسية

مداخلة الأمينة كوكب معلوف

اثنان وعشرون جيلًا بين عقيدة سعاده وبين الرواقية، الفلسفة الإنسانية الراقية بنظرتها الحضارية والقيمية الرائدة. هكذا يقدم ادمون ملحم لكتابه.

هو إذ يدعو إلى أهمية الاطلاع على هذه الفلسفة وإلى حجم اهتمام سعاده بإبراز هذه الفلسفة السورية التي تنبع من أصالة وقيم بلادنا، نرى كيف دفع الكتاب القوميين الاجتماعيين إلى الاهتمام بهذه الفلسفة ومفاهيمها القائمة على أسس الواجب والعقل والقوة.

يقدم ادمون ملحم الرواقية في كتابه "الفلسفة الرواقية: من زينون الى سعاده" على أنها فلسفة سورية فينيقية، ذات نظرة واقعية وعملية ضمن الوجود، وهي الطبيعة ولا وراء الطبيعة، هي النفسية المصارعة دومًا التي لم تقول بالعمل لتحقيق الأفضل.

الرواقية، هي فلسفة المنطق وقد حولها الرواقيون إلى علم الجدل، موضوعه الحق والباطل ومادته الاستدلال والبرهان، فحثوا تلاميذهم على دراسة هذا العلم، حتى باتوا يُعرفون بمؤسسي علم المنطق الحديث.

زينون كان مثال الخلق العالي ضابطًا لنفسه، صبورًا وقوي الإرادة هذا ما جعله موضع إجلال ومضرب المثل، حتى بات الأثينيون يقولون "ضابط لنفسه مثل زينون". لقد بنى زينون فلسفة الأخلاق الجديدة. ومن أشهر أقواله "إن الفلسفة بستان والمنطق سوره وسياجه الحامي والطبيعة شجره والأخلاق ثمره".

إذا كان زينون هو أول من أدخل كلمة الواجب إلى الفكر الإغريقي، فإن الظاهرة الأبرز في فلسفة زينون الرواقي، أنها قالت بنظرية وحدة الوجود، التي تعتبر الله والعالم واحدًا مؤكدا على العقل، إذ يقول: "إن الله هو عقل العالم المطلق".

حاول الرواقيون تطبيق الجدل للبرهان على أساس وجود كائن عامل أرفع من الإنسان. وأعطوا أوصافًا لله: الموجود، الأزلي الباقي، العاقل، السعيد، الكامل، المبرأ من كل نقص.

من هذا المنطلق، اعتبر سعاده أن فلسفة زينون تضعه في مصاف الفلاسفة الموحدين، باعتبار أن هذا المبدأ يدعو إلى الإيمان بالعناية الإلهية وبانتصار عامل الخير على الشر. وحرصًا من زينون على ألا يؤدي هذا المبدأ إلى الاتكالية الشرقية دعمه بمبدأ الإرادة والواجب وأعمال الفكر.

خلاصة واضحة، الرواقيون يؤمنون بإله واحد وليس بآلهة كثيرة ذلك من خلال العقل، الأمر الذي يعني خضوعًا للإله الذي يتحكم في العالم وهو كل شيء.

حتى الخير، حسب الرواقيين هو، طاعة للإله، أن العبودية المخلصة للإله والعقل والقانون تؤدي عند الرواقيين إلى الحرية الحقيقية.

في مفهومهم للعقل الذي اعتبره سعاده، انه الشرع الأساس، اعتبر الرواقيون أن كل حكيم يسير طبقًا لقوانين العقل الطبيعية التي هي جزء من الآلهة. لهم هذا القول "إن الإله إنسان كبير والإنسان إله صغير". يقول زينون هنا، إن من العقل أن نمجد الآلهة وليس من العقل أن نمجد اللاموجود، فالآلهة موجودة هي خلاصة مهمة عن وجود الإله.

يحرص الكاتب على إظهار أوجه الشبه بين الرواقية والمسيحية والمحمدية، حسبما قاله سعاده في كتاب "الإسلام في رسالتيه" الذي قال، أنها لم تكن نقيض الفلسفة الرواقية، بل هي منسجمة معها على تسليط العقل على مجرى التاريخ، وأن ميزة الإنسان الأساسية هي الفكر ويعدد أوجه الشبه.

تلتقي الرواقية مع المحبة والسلام والتسامح والمساواة بين البشر كما المسيحية والمحمدية.

من القوة والعقل، إلى الواجب، قيم مهمة عند زينون الرواقي وكذلك وحدة الإله، لقد برع إدمون ملحم في الغوص داخل هذه الفلسفة مستكشفًا جوانبها، مضامينها، مدى تأثر المفكرين الكبار بها، وصولًا إلى عصر التنوير وكيف تابعت انتشارها الفكري في أوروبا. (ديكارت، سبينوزا وكانط)

هكذا تأتي فلسفة سعاده الأخلاقية لتلتقي عميقًا مع الفلسفة الرواقية ومناحيها الأخلاقية كافة التي استهدف فيها صلاح الفرد والمجتمع.

لقد قال سعاده "أن كل نظام يحتاج إلى الأخلاق، بل إن الأخلاق هي في صميم كل نظام يمكن أن يكتب له أن يبقى". عن الإنسان الجديد تكلم أنطون سعاده، وكذلك زينون الرواقي الذي قال عن "الحكيم الرواقي "... أنها فلسفة بناء المجتمع الجديد المتحرر من كل أشكال العنصرية والتعصب العرقي وإلى حياة الفضيلة والحكمة".

في الكتاب غنى كبير وفي فصوله الست كنوز معرفية لفلسفة سورية انطلقت قبل 300 ق م وبقيت إلى الآن تشع معرفة وحضورا وتسامحا وقيما.

شكرا للأمين ادمون ملحم الذي قدم لنا كل هذه المضامين بأسلوب شيق ولغة جميلة.

تحية لحضرة وكيل العميد الرفيق إبراهيم مهنا وللباحثة ريتا زياده وللندوة الثقافية التي تفتح بابها لكل هذا النشاط الفكري.

استدارة الدم ومدارات العشق

شعر إبراهيم شريف

خبّأْتُ وعـــــدكَ بين القلبِ والكـــــبدِ ... فأخصْبَ الشوقُ حتى فاضَ من جسدي
كأنّنـــــي عاشـــــقٌ في صـــمتهِ لغةٌ ... يومَ اللقاءِ، وغيرُ الصّـــــــــمتِ لم يردِ
يا للمواعيد.. كم اهفـــــــو لموعدهـــــا ... ويستفيقُ على صـــــحْو الورود غدي
أحاور الشـمس لا أشـــــــكو الى أحدٍ ... وعاشـــقُ الشمس لا يشـــكو إلى أحدِ
يســتيقظ الجرح من أعمـــــــاق غفوته ... من أضْرم النار فـــــي جمـــــرٍ لمتّقدِ
حاولتُ حاولتُ أن أنســـى الجراح وهلْ ... تنســـى الشـــواطئُ طعمَ الموج والزّبدِ
إنَّ الهُتافاتِ قد ضـــــــاعتْ حناجرها ... حتى صـــــداها برجع الصـوت لم تجدِ
أقسـمت بالأرض في منفاي في وطـــني ... لا للقيـــود وللأغـــــلال والـــزّرد
أقسمت بالجـــــرحِ لا تفترُّ لي شـــــفةٌ ... حتـــى أمزّقَ وجـــه الليل عن بلدي
أقســـــمتُ بالشـــــهداء الخالدينَ وانْ ... تظلّ ســـــاهرةٍ فـــــوق الزّنـاد يدي

ثارتْ بلادي وقد قصّـوا ضفـائرها ... وحاصروها وظنّوا الأرض تُغتَصبُ
مواسم الحزن من قاموسـها احترقتْ ... فأزهـــــر الدّم والمتراس واللهب
أعلنت للريحِ أنّ البحر ســـــاريتي ... والريحُ تعصـــفُ والتيار يصطخبُ
امتدُّ دون انحنـــــاءٍ، لا يرافقـني ... غير المداراتِ في عشقي لمْ العجبُ
خطوتُ في الموت أمشي فوق جثّتِه ... وبالشـــــهادة نحو النصرِ أقتربُ
هذي دمائي بأهدابِ المدى وثبتْ ... وتسـتديرُ رصـاصـــًا عندما تثبُ
يا شـــعر عفوك إنّ الجرح داهمني ... فاجتاحني الثأر والإعصار والغضبُ
أين الوعـود التي ما أبصرتْ غدها ... أين الوعود التي ضجّتْ بها الخطبُ؟
أين الوعـود التي في مهدها قُتِلتْ ... كانت ســـــرابًا بماء العين تنسكبُ
وأين أين فإنّ (الأيـــن) قد تعبتْ ... أين الجنوبُ وأين القدسُ يا عربُ

عبرتُ للتبغ والزيتـــــــون مرتحلا ... كما يســـــيرُ بشوق الغيمة المطر
شاخَ انتظاري فغادرت السنين إلى ... حيث الدمُّ الحيّ في الشريان ينتظر
ها انتَ تُشْـــــعلني للحبِّ أغنيةً ... والصوتُ انت، وانت اللّحن والوتر
من أين ادخل في أرضي إلى وطني ... والليل حاصـــرني والموت والتترُ
في ظلمة الليل ما أبصـــرت نافذةً ... حملتُ عينيكَ لما خانني البصـــرُ

عودة إلى الرئيسية

هذي امانيك في أجيال أمّتنا ... وموكبُ النصرِ معقودٌ له الظَّفرُ
هذي معانيكَ رمزٌ للفداء، بها ... بعدُ المسافاتِ للعلياءِ تُختَصرُ
نلقاكَ وعدًا، اليكَ الشوق يَسبقنا ... كما تحنُّ إلى أوراقها الشّجرُ
نراكَ صبحًا، على مينائه غدُنا ... وكمْ يطيبُ إلى عشّاقِه السّفرُ
ويُزْهرُ الفجرُ شمسًا من قوافلنا ... منها الحياة ومنها يولدُ القدرُ